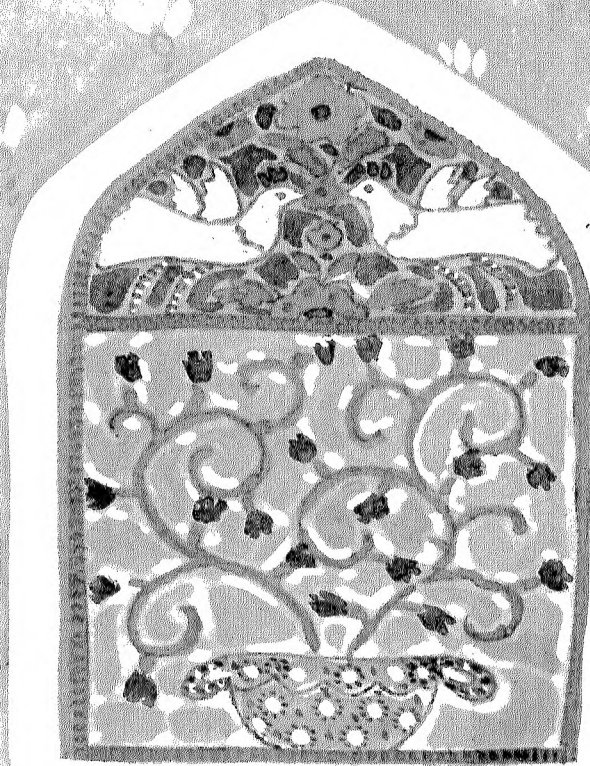


فستان فوق شوشة



بلى عشتين قصيدة
الحب الالهى

دار الشروق

0160220



Bibliotheca Alexandrina

أَجِبْنَاكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ قَيْسٍ قَصِيدَةً
فِي الْحُبِّ وَالْإِلَهِيَّةِ

طبعة دار الشروق الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

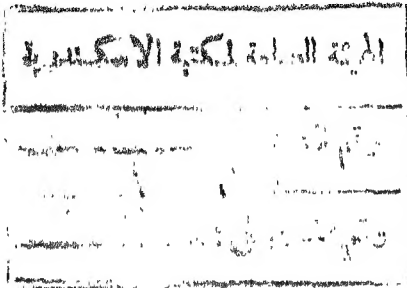
الطبعة : ١٦ شارع جواد حسن - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بريضا : شروق - فاكس : 93091 SHROK UN

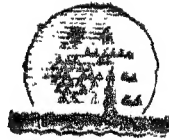
بوزيت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣٩٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

بريضا : دانسروك - فاكس : SHOROK 20175 LE

فستان فوق شوشنة



الحبيب إلى عشرين قصيدة في الحبيب الإلهي



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Shubra Khayma, Alexandria

دار الشروق

« لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلانٍ وديرٍ لرهبان
وبيتٍ لأوثانٍ، وكعبة طائفٍ
وألواحُ توراةٍ، ومصحف قرآنٍ
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه، فالحب ديني وإيماني »

ابن عربي

هذا الكتاب

هذه هي الحلقة الثانية في سلسلة المختارات التي تهدف إلى تقديم عيون الشعر العربي - قديمه وحديثه - من خلال التفافها حول إطار معين ينتظم هذه المختارات ، أو تجربة شعرية كبرى ، مع التوقف بالتحليل والتأمل عند أبرز من تناولوها في رحلة القصيدة العربية عبر العصور .

وإذا كانت الحلقة الأولى في هذه السلسلة توقفت عند تجربة الحب في الشعر العربي ، وحملت عنوان « أحلى عشرين قصيدة حب » في هذا الشعر ، فإن هذه الحلقة الثانية تتقدم إلى ساحة أسمى من ساحات هذا الحب هي ساحة الحب الإلهي ، حيث فاضت وجدانات العشاق الكبار من الشعراء بأنغام وترانيم وألحان تطهروا بها ، وحلقوا من خلالها ، دُنُوًّا واستشراقًا من الأفق الأعلى والأسمى ، حيث ينابيع الروحانية ، والفيض الغامر ، وحيث تمتلئ النفوس بأقباس من النورانية وتفيض العيون بدموع الندم والخشية والتوبة ، وتعمر القلوب بوشائج المحبة الدائمة ، ومقامات العشق وأحواله ، وينسكب هذا كله في النهاية شعراً يفيض بالصدق ويعمر باليقين والمحبة والإيمان .

لكن الأمر في هذه المختارات المتصلة بالحب الإلهي لم يكن بالهين أو اليسير .

فعلى الرغم من امتلاء صفحات كثيرة من تراثنا العربي بنماذج هذا الحب ، إلا أن اختلاطها واضطرابها وتداخلها ، وتفاوت مستوياتها بين أصالة وتقليد ، وشاعرية وصنعة ، وصدق وتكلف ، يجعل مهمة الاختيار والتصنيف شاقة وعسيرة ، فضلاً عن عدم ملائمة الكثير منها ، وهى أمور اقتضت بذل المزيد من الجهد ، واستغراق الكثير من الوقت .

ولسنا نزع أن هذه القصائد العشرين هى أفضل ما فى تراث الحب الإلهي - قديمه وحديثه - من نماذج ، ولا أن أصحابها من الشعراء هم وحدهم أفضل الشعراء وأحقهم بأن نتوقف عندهم ، فكما قلت فى تقديمي « لأحلى عشرين قصيدة حب فى الشعر العربى » : إن الأساس الأول فى الاختيار هو ذوق شخصى ، وقد يخطئ هذا الذوق وقد يصيب ، لكن ارتباطى الوجدانى ببعض هذه القصائد من خلال مواقف وتجارب معينة ، وعلى مدار العمر ، جعلها أقرب إلى نفسى وأسبق إلى الاختيار من سواها .

كذلك فإن حرصى على تغطية مساحة طويلة من الزمان تنتظم شعر الحب الإلهي - من بدئه كظاهرة فنية ملموسة حتى يومنا هذا جعلنى - كما قلت من قبل - لا أطيل التوقف عند ممثلى كل عصر من بين أعلامه وأصواته الكبرى بقدر إسراعى إلى انتزاع القصيدة النموذج فى دلالتها وموضعها من السياق .

ولاشك أن وضع هذه المختارات في سلك منظوم يحمل انتظامه معنى ، ويعطى تتابعه واطراده دلالة ، ويؤدى بسياق اكتماله إلى فكرة واضحة هى الكشف عن تجربة التعبير عن الحب الإلهى فى شعرنا العربى ، وحقيقة موقف الشعراء العشاق من هذه التجربة والمدارات التى حلقوا فيها وسموا إليها ، وألوان الصور الشعرية التى أبدعوها والأنغام الموسيقية التى عزفوها والأبنية الفنية التى أقاموها - لاشك أن هذا الهدف يستحق عناء البحث والتنقيب والتحقيق والاختيار .

ولقد ظلت هذه النماذج وغيرها من تراث الحب الإلهى مختلطة مع غيرها من قصائد المدائح النبوية والابتهالات والأدعية والمنظومات والأذكار الدينية ، ولعل هذه هى المحاولة الأولى لاستخلاصها ، وتجريد بعضها مما لحق به من تحريفات أو علق به من تجاوزات ، حتى تكون هناك مختارات قادمة ، تركز على شعر المدائح النبوية باعتبارها فناً مستقلاً ، له خصائصه وسماته وله أعلامه من الشعراء قدامى ومعاصرين ، وله مساحته الواسعة من الدوران فى ديوان الشعر العربى منذ أقدم العصور حتى اليوم .

والأمل معقود أن تلقى هذه المختارات من شعر الحب الإلهى ما لقيته سابقتها لدى القراء من ذىوع وانتشار ، بعد أن أدى الإقبال عليها إلى صدور الطبعة السادسة منها فى سنوات معدودة ، وأن يستجيب شعراؤنا ودارسوننا للدعوة التى حملتها المختارات السابقة : أن يسهموا ويشاركوا فى هذا الميدان ، كل على حسب طاقته واستطاعته واهتماماته ، فتعدد مجالات الاختيار ، من خلال أدواق عدة ، من شأنه

أن يؤدي في النهاية إلى تكوّن الذوق الصحيح المدرب الذى يجيد الانتقاء والرؤية النافذة ، وينجح في تقديم قراءة عصرية جديدة لكل ما يحمله التراث من كنوز ، بعد أن ينفّض عنها غبار الإهمال والنسيان ، ويعيد إليها ماء الجذّة والحياة .

فإذا ما نجحت هذه المختارات في تقريب المسافة بين القارئ المعاصر وتراث أمته الشعري - قديمه وحديثه - وفتحت بابًا ولويسيرًا لتذوق عصرى ، ترفده حساسية جديدة ، ووعى جديد ، فإنها تكون قد شارفت الغاية ، وأشارت إلى الطريق .

الرحلة في بحار العشق

هى رحلة حب من طراز نادر وفريد .

نتقدم من خلالها إلى ساحة عامرة وضيئة ، تفتنى بالعديد من الأنغام والألحان التى أبدعها هؤلاء الشعراء الذين تغنوا بالحب الإلهى — عشقاً وهيئاً وفناءً وذوباناً — بعد أن سموا بإدراكهم وتذوقهم للجمال والحب إلى ما فوق رغبات الحس ودواعى المتعة ونفذوا إلى أبعد آماذ معانيه وصوره وتهويماته ، واستطاع هؤلاء الشعراء — الذين امتلأت قلوبهم ووجداناتهم بأقباس الحب الإلهى — أن يبدعوا عالماً شعرياً له مفرداته ورموزه وإحياءاته ، وله معجمه الخاص الذى لا بد من الإحاطة به لمن يحاول الاقتراب من حدود عالمهم الشعرى ، خشية أن يزل أو يضل ، فالجمال بالنسبة إليهم وسيلة لسمو الروح واهتدائها إلى المعانى الخيرة المطلقة والمبادئ السامية . كما أن آيات الابداع التى تتجلى فى المخلوقات هى سبيل لتحقيق النشوة الروحية التى يعرج بها كل امرئ نقى السريرة إلى الله .

فالجمال الإلهى يتجلى فى الطبيعة من خلال الموجودات والكواكب

والنجوم ، كما يتجلى في الناس . والكون كله يشترك في عبادة ذي الجمال المطلق المنزه عن التشبيه ، ويهيم بهذا الجمال في نشوة مقدسة ، وهذا الحب الإلهي يغمر الكون ، ولولاه ما انتظم الكون . ومن هنا يمكن أن نفهم تجليات هذا الحب وأسراره وإيماءاته ومضاته ونحن نتابع رحلة هؤلاء الشعراء في هيامهم بالجمال الإلهي تتردد على شفاههم أسماء محبوباتهم من البشر ، وهي في حقيقتها رموز الجمال الأسمى ، فليلي وسعاد ونعم - وغيرها من الأسماء في أشعارهم - هي الحبيب الأعظم ، وهي سبيلهم إلى الهداية الروحية ، يتجاوزون الجمال الجسمي المحدد إلى الانتشاء بالفيض الإلهي ، لجمال يجل عن الوصف ويتقدس عن الكيف .

وقد عبر محيي الدين بن عربي - أحد هؤلاء العشاق الكبار من الصوفية - في مقدمة ديوانه : ترجمان الأشواق ، عن حقيقة إدراك هؤلاء الشعراء للجمال الإلهي ، منبهاً إلى أن أشعارهم لها ظاهر وباطن ، فظاهرها غزل يمكن أن ينطبق على الغزل الحسّي ، ولكن باطنها الهداية إلى أسرار الهيام بالمعارف الإلهية والواردات الباطنة والأسرار الجمالية العليا .^(١)

يقول ابن عربي :

« لما نزلت بمكة سنة خمس مائة وثمانين وتسعين ، ألفت جماعة من الفضلاء ، ولم أر فيهم مع فضلهم مثل أبي شجاع بن رستم

(١) ليل والمجنون أو الحب الصوفي ترجمة وتقديم الدكتور محمد غنيمي هلال .

الأصفهانى ، وكان لهذا الشيخ بنت تقييد النظر وتزين المحاضر ، علمها عملها ، عليها مسحة مَلَك وهمة مَلِك ، فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب أحسن القلائد ، فكل اسم أذكره في هذا الجزء فعننا أكنى ، ولم أزل فيما نظمته في هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية ، والتنزلات الروحية والمناسبات العلوية ، جرياً على طريقتنا المثلى ، والله يعصم قارئ هذا الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق بالنفوس الأبية والهمم العلية المتعلقة بالأمور السماوية » .

فإذا حاولنا أن نتأمل حقيقة هذا الحب الإلهى ومعناه ، ذلك الذى هام فيه الصوفية ، وفنوا وتفانوا ، معبرين عن خوالجهم وعن سطحاتهم ، في نثرهم وشعرهم ، وأدعيتهم وابتهالاتهم ، وشروحهم وتعليقاتهم ومنظوماتهم ، وجدناه وقد تمثل في صورته الأولى من خلال التعبير القرآنى المحكم ومؤثر كلم الرسول الكريم .

جاء هذا المعنى في القرآن الكريم « يحبهم ويحبونه » في قوله تعالى : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ . [سورة المائدة : الآية ٥٤] وفى قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

[سورة آل عمران : الآية ٣١]

وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ .

[سورة البقرة : الآية ١٦٥]

ويروى عن الرسول الكريم : اللهم إني أسألك حبك ، وحب من
يحبك والعمل الذى يبلغنى حبك ، اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى
وأهل ومن الماء البارد .

ومن ماثور قول الرسول الكريم :

« من أحب الله فليحبنى ، ومن أحبنى فليحب أصحابى ومن أحب
أصحابى فليحب القرآن ، ومن أحب القرآن فليحب المساجد فإنها أبنية
أذن الله تعالى برفعها وتطهيرها وبارك فيها ، فهي ميمونة ميمون
أهلها، فهم فى صلاتهم والله تعالى فى حوائجهم ، وهم فى مساجدهم والله
تعالى فى نجاح مقاصدهم » .

وفى القرن الثانى الهجرى تتأكد فكرة حب الله من خلال شخصية
التفت حولها القلوب والعقول ، هى شخصية رابعة العدوية التى
ظهرت فى البصرة داعية بدعوة جديدة هى دعوة التقرب إلى الله عن
طريق حبه ، وهى تنادى بهذا الحب لأنها ترى أن الله أهل لأن يحب
أولاً لأنه مصدر النعم التى لا تنقطع ، فلا سبيل لأن ينقضى حب
المنعم بها على العباد ، وهو أهل لأن يحب ثانياً لجماله وجلاله .
تقول رابعة :

أحبك حبين : حب الهوى

وحباً لأنك أهلٌ لذاكا

فأما الذى هو حبّ الهوى

فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما النذى أنت أهل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى
ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا
وفى موضع آخر من شعرها تقول :
ياسرورى ومنيتى وعمادى
وأنيسى وعدّتى ومرادى
أنت روح الفؤاد ، أنت رجائى
أنت لى مؤنسى وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياتى وأنسى
ما تشئت فى فسيح البلادِ
كم بدت منة وكم لك عندى
من عطاءٍ ونعمة وأيادى
حبك الآن بُغيتى ونعيمى
وجلاء لعين قلبى الصادى
ليس لى عنك ما حييت براحُ
أنت منى ممكّن فى الفؤادِ
ويبدو أن نفاذ شخصية رابعة فى القلوب ، ودوران شعرها على

الأسنة والأسماع ، هو الذى أغرى كثيرين بالنظر إليه متابعةً
واستلھاما ، يقول واحد منهم يعزف على وتر رابعة:
لما علمت بأن قلبى فارغ
ممن سواك ، ملأته بهواكا
وملأت كلى منك ، حتى لم أدع
منى مكانا خاليا لسواكا
فالقلب فيه هيامه وغرامه
والنطق لا ينفك عن ذكراكا
والطرف حيث أجيله متلفتا
فى كل شىء يجتلى معناكا
والسمع لا يصغى إلى متكلم
إلا إذا ما حَدَّثُوا بحلاكا
بل إنه ينظر من قريب أيضا إلى أبيات ابن الفارض المشهورة :
لك قرب منى ، ببعْدك عنى .
وحنو وجدته فى جفاكا
علّم الشوق مقلتى سهر الليل
فصارت من غير نوم تراكا
حبذا ليلة بها صدتُ إسراك
وكان السهاد لى أشراكا
بات بدر التمام طيف محيّاك
لطرفى بيقظتى إذ حكاكا

فتراءيت في سواك لعين بك قررت وما رأيت سواكا

وهي أبيات تدور حول فكرة استحضار صورة المحبوب وتفنن هؤلاء الشعراء العشاق في الإتيان بالصور المبتكرة والمعاني الطريفة ، وهو مجال كان لابن الفارض فضل السبق فيه ، من خلال قدرته الفذة على اصطلياد عشرات الصور التي يتمثل فيها جمال صورة المحبوب ، وتتجلى روعتها وتفردھا وتمايزھا ، أليس هو القائل :

تراه إن غاب عني كل جارحة
في كل معنى لطيفٍ رائقٍ بهيج
في نغمة العود والنای الرخيم ، إذا
تألّفا بين الحانٍ من الهزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في
برد الأصائل والإصباح في البكج
وفي مساقط أنداء الغمام على
بساط نور من الأزهار مُنتسج
وفي مساحب أذيال النسيم إذا
أهدى إلى سَحِيرٍ أطيب الأرج
وفي التثامي ثغر الكأس مرتشفاً
ريق المدامة في مستنزه فرج
لم أدْرِ ما غربّة الأوطان وهو معي
وخاطري أين كنتا غير منزعج

ويبدو أن هذا اللون من الحب لم يكن من السهل ولوج عالمه والارتفاع إلى مستوى معانيته وتمثله ، إلا بعد ابتلاء طويل وتجارب قاسية يتعرض فيها المتصوف في البداية إلى معاناة الحب الإنساني حتى تحتدم به عاطفته ، فيكون التحول إلى حبٍ أسمى هو حب الله .

قال بعض المريدين لأستاذه : قد طولعت بشيء من المحبة .

فقال : يا بنى : هل ابتلاك بمحبيب سواه فأثرت عليه إياه ؟

فقال : لا ، فقال : فلا تطمع في المحبة فإنه لا يعطيها عبداً حتى يبلوه. وشبيه بهذا ما قيل لبعض الصوفية وكان قد بذل المجهود من ماله ونفسه حتى لم يبق منها بقية : ما كان حاله من هذه المحبة ؟ فقال : كلمة سمعتها من خلق لخلق عملت بى هذا البلاء . قيل : وما هى ؟ قال : سمعت محبوباً قد خلا بمحبوبه وهو يقول : أنا والله أحبك ، أملكك ما أملك ، ثم أنفق عليك روى حتى تهلك ، فقلت : هذا خلق لخلق وعبد لعبد ، فكيف بخلق لخالق وعبد لمعبود ، فكان لذلك سببه^(١) ثم يجيء ذو النون المصرى — فى القرن الثالث الهجرى — ليضيف إلى هذا البعد من أبعاد الحب الإلهى عند المتصوفة ملمح الأنس ، الأنس بالله ، أى العمل له خالصاً ، مع فرح القلب بالمحبيب « أى الله » ولو كان ذلك عن طريق النظر إلى بعض خلقه اتعاضاً واعتباراً دون السكن إليهم.

يقول ذو النون حين سئل عن الأنس : أن تأنس بكل وجه صبيح

(١) « أبو طالب المكي » : قوت القلوب جـ ٣ .

وكل صوت فصيح ، والله تبارك وتعالى فيما بينك وبين ذلك .
ثم نطالع عند إخوان الصفاء - في القرن الرابع الهجري - إدراكاً أعمق
وأشمل لفكرة الحب الإلهي باعتباره الحب الحق والعشق الخالد الذي
تسمو إليه النفس الناطقة عند بلوغها أقصى ما تسمو إليه من الكمال
فالله هو المعشوق الأول المنزه عن الشبيه (١) ولا يستلزم حب الله
والهيام به تجسيمياً في رأيهم ، لأن الله يجل عن الشبيه والصورة ، لكن
رؤية أولياء الله تعالى له هي رؤية نور بنور لنور في نور ، كما جاء في
قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها
مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من
شجرة مباركة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم
تمسه نار ، نور على نور ﴾ .

[سورة النور : الآية ٣٥]

وهكذا يمضي إخوان الصفاء في هذا الطريق ، طريق اتخاذ الحب
طريقاً إلى الله ، والهيام به لجماله وجلاله ، وإدراك أن هذا الجمال كان
الباعث على خلق الكون (٢) ، والفلك إنما يدور شوقاً إليه ومحبة للبقاء
والدوام المديد على أتم الحالات وأكمل الغايات وأفضل النهايات .
وهكذا تكتمل صورة هذا الحب الإلهي ، من خلال أبرز أعلامه ، بل
واتجاهاتهم وأفكارهم ، فهو ليس تعلقاً بالأجساد وصور المادة ، بل

(١) رسائل إخوان الصفاء ج-٢ .

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين : ابن قيم الجوزية .

هو حب للمعاني العقلية والكاملة وتعلق بالمثل وهيام بمصدر الكمال والجمال ، ومن هنا فالحب عند الصوفية طريق إلى الزهد في متع الدنيا جميعاً وحرب على النفس وسبيل إلى العزوف عن مغرياتها .

والصوفية يحفلون بجمال الروح قبل جمال الجسم ، ولا فرق عندهم بين حب من صفت روحه من حسان الخلق وحب شيخ الطريقة الكهل الأشيب لأنه جميل الروح ^(١) . وشرط الوصول إلى الحق عن طريق الحب أن يكون المحب جميل الروح ، وأن يهتم بمخلوق جميل الروح ولو لم يكن جميل الجسم ، إن جمال الروح هو الذي يفتح أمام المحب الطريق للتأمل والفكر اللذين هما السبيل للوصول إلى الغاية من الحب عند الصوفية . فجمال الخلق يمكن أن يتخذ سبيلاً لمعرفة الحق ، والحب هو الطريق لمعرفة الحقيقة . يقول عبد الرحمن الجامي الشاعر الفارسي المتصوف - في قصة يوسف وزليخا (ترجمة الدكتور محمد غنيمي هلال) :

« القلب الخالي من ألم العشق ليس بقلب ، والجسم الخالي من ألم العشق ليس إلا ماءً وطيناً ، فأشح بوجهك عن العالم ولا تفكر إلا في العشق ، فدوران الفلك إنما هو من أجل العشق فكن أسير العشق لتصير حرّاً ، وقاس من أحزانه في صدرك لتحظى بالسرور ، ولا تشح بوجهك عن العشق ولو كان العشق المجازي لأنه الطريق إلى العشق الحقيقي ، وكيف تتيسر لك قراءة القرآن إذا لم تكن قد طالعت أولاً

(١) الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية للدكتور محمد غنيمي هلال .

الحروف الأبجدية في اللوح ؟ سمعت أن مر يدًا طلب من شيخه العون في إرشاده فقال له الشيخ : إذا لم تكن قد نقلت الخطو في طريق العشق فاذهب وأحب ثم عد إلينا ، إذا بدون كأس خمرة الصورة لن يستطيع امرؤ تذوق جرع المعنى ، ولكن لا تمكث طويلًا أمام الصورة واعبر سريعًا ذلك الجسر إذا أردت أن تسرع بوضع رحلك في منزل الوصول».

ويروى الجامى في قصته « يوسف وزليخا » حكاية الفتاة المصرية الجميلة المسماة « بازعة » وقد أحبت « يوسف » من قبل أن تراه لما سمعته من وصفه ، فلما رآته وقعت مغشياً عليها لما بهرها من جماله ثم أفاقت فأخذت تسأله : « يا من بك يستقيم أمر كل ذى حسن ، من ذا الذى زينك بمفاتيح الجمال ؟ من ذا الذى جعل شمس جبينك تتألق ؟ وأى مصور أبدع قلمه فى نفسك ؟ وأى بستانى تعهد شجرة سروك وأى فرجار رسم قوس حواجبك ؟ ومن ذا الذى جعد هكذا ذوائبك ؟ ومن أين لوردتك النضرة ذلك الماء الذى به رويت ؟ » .

فأجابها يوسف : « أنا صنعة صانعى ، وقطرة من بحره كافية لخلقى ، وما الفلك إلا نقطة من كماله ، وما العالم إلا برعمة من حديقة جماله ، وقد أشرقت الشمس بنور حكمته ، وما السموات إلا حجاب من بحر قدرته ، وجماله منزه عن تهمة العيب ، مستتر فى حجاب الغيب ، وقد جعل من ذرات العالم مرايا انعكس وجهه فى كل منها ، فكل ما يبدو جميلاً فى عيون المفكر النافذ البصيرة ليس إلا انعكاساً لوجهه ، فحين ترين هذا الانعكاس عجل بالاتجاه صوب الأصل الذى لا يبقى

بالإضافة إليه إشراق لذلك الانعكاس ، وإذا بقيت بعيدة عن أصل ذلك الجمال - وحاشا أن تبقى - فلا يلبث أن يفنى الجمال الذى تعلقت به فتظلين فى الظلمات ، فالجمال فى الخلق انعكاس عابر لا يطول بقاؤه كنضارة الورد فإذا أردت الخلود فتوجهي إلى أصل الأشياء كلها .

وعندما علمت الفتاة الحكيمة بهذه الأسرار من فم يوسف ، طوت بساط حبها له ، وقالت له : « قد كدت أسقط إعياء عندما رأيت وجهك ، وكنت أود أسلم الروح فوق قدميك ، ولكن حين ثقت بـ جوهر الأسرار وتحدثت عن سمات منبع الأنوار ، جعلتنى بلطف قولك الحق أدير وجهي عن حبك ، قد رفعت الحجاب عن وجه المثال الذى إليه تطلعت ، والآن وقد تفتح قلبى لهذا السر ، وتطلعت أنظاري إلى العشق الحقيقى عن طريق عشقك المجازي ، فخير لى أن أنصرف عن المجاز إلى الحقيقة . ثم شكرت يوسف وانصرفت ، وأسست لها مقاماً للعبادة على ساحل النيل حيث ترهبت وزهدت فى خير الدنيا .

ويعرف بعض هؤلاء العشاق من المتصوفة المحبة بأنها الميل الدائم بالقلب الهائم ، وإيثار المحبوب على جميع المصحوب ، وموافقة الحبيب فى المشهد والمغيب ومحو المحب بصفاته وإثبات المحبوب بذاته ، ومواطأة القلب لمرادات الرب ، وترك الحرمة مع إقامة الخدمة .

يقول أبو يزيد البسطامى : المحبة استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك .

ويقول سهل بن عبد الله التستري :

إن العباد عبدوا الله على ثلاثة وجوه : على الخوف والرجاء والقرب

ولكل علامة يعرف بها وشهادة تشهد له بما له وعليه . فعلامه الخائف الاشتغال بالتخلص مما يخاف فلا يزال خائفاً حتى يتخلص ، فإذا تخلص مما يخاف ، اطمأن وسكن ، فهذه علامة الخائفين . وأما الراجي فإنه رجا الجنة وطلب نعيمها وملكها فأعطى القليل وطلب الكثير ، فبذل نفسه وخاف أن يسبقه أحد فجذ في البذل وتحرز من الدنيا ألا يقف غدا في الحساب فيسبق .

وأما العارف الذي طلب معرفة الله وقربه ، فإنه بذل ماله فأخرجه ، ثم روحه فأباحه ، فلو لم تكن جنة ولا نار لما زال ولا فتر ، فهذه علامة العارف .

فانظروا أيها العقلاء : من أي القوم أنتم ؟ أموتى لا حياة فيكم ، أم لا موتى ولا أحياء ؟ أم أحياء حيوا حياة الخلد ؟ ويحك : إن الخائف حيٌ بحياة واحدة ، وللراجي حياتان ، وللعارف ثلاث حيوات ، وهى الحياة التى لا موت فيها .

فحياة الخائف إذا أمن النار فقد حياى بحياة ثم يتم بحياة ثانية ، ويدخل الجنة بغير حساب ، والراجي أمن من العذاب ومن الحساب فمر إلى الجنة مع السابقين بغير حساب ، فصار له أمانان ، وأما العارف فصار له أمانان من النار ، والأمان الثالث صار إلى الرحمن . ويقول سهل أيضاً :

الحب معانقة الطاعة ، ومباينة المخالفة .

وسئل الجنيد عن المحبة فقال : دخول صفات المحبوب على البذل من صفات المحب .

ويقول أبو عبد الله القرشى : حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحبت
فلا يبقى لك منك شىء .
ويقول الشبلى : سُميت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سوى
المحبيب .

ويقول ابن عطاء : المحبة إقامة العتاب على الدوام .
ويقول أبو على الدقاق : المحبة لذة ومواضع الحقيقة دهش .
ويقول أيضاً : العشق مجاوزة الحد في المحبة .
ويقول الشبلى : المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك .
ويقول ابن عطاء : المحبة أغصان تغرس في القلب فتثمر على قدر
العقول .

ويقول سحنون : ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة لأن
النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : يحشر المرء مع من أحب .
ويقول النصر اباذى : المحبة مجانية السلو على كل حال .
وأنشد قائلاً :

ومن كان في طول الهوى ذاق لذة
فإنى من ليلى لها غير ذائق
وأكثر شىء نلت من وصالها
أمانى لم تصدق كلمحة بارق
وأنشد ابن عطاء :

غريست لأهل الحب غصناً من الهوى
ولم يك يدري ما الهوى أحد قبلى

فأورق أغصاناً وأتبع صبوةً
وأعقب لى مرّاً من الثمر المحلى
وكلّ جميع العاشقين هواهم
إذا نسبوه كان من ذلك الأصل
وفسير أبو على الدقاق قول الرسول الكريم : « حبك الشيء يعمى
ويصم » قال : يعمى عن الغير غيرةً وعن المحبوب هيبه .
ثم أنشد :

إذا ما بدا لى تعاضمته
فأصدر فى حال من لم يرد
ويقول الحارث المحاسبى : المحبة ملىك إلى الشىء بكليتك ، ثم
إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرّاً وجهراً ، ثم
علمك بتقصيرك فى محبته .

ويقول الشبلى : المحب إذا سكت هلك ، والعارف إن لم يسكت هلك .
ويفسر بعض العارفين^(١) هذا الكلام بقوله :
إن المحب الواله لابدّ له من الشكوى ، ويهيج من المحبة حتى ليكاد
أن يحترق لو لم يبد ما عنده ، ولا يستطيع الصبر على غيبة محبوبه ،
لذلك قال الله فى حق أم موسى — عليه الصلاة والسلام — عند إلقائه فى
اليم وغيبته عنها (إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) ولو
كان بين يديها لكتمته حرصاً عليه ، وكذلك العارف إذا وصل إلى

(١) السمو الروحى فى الأدب الصوفى لأحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى .

المعرفة بمحبوبه كتم سره حرصًا على البقاء في حضرته وأدبًا من هيئته وخشوعًا في حضرته ، ولأنه بات في حضرة الغنى المطلق مترقيًا في الأسرار العلية فلا ينظر ما سواه ، وقد أغناه عن طلب غيره والتذُّ بسرّيان السرفيه ، فهو في مسارح الروح تائه في بيداء الجلال ، يتكلم المتكلمون حوله وقلبه قد لها عنهم ، وروحه في تجلياتها العظمى فوق مدارك الفهوم فلا يفهمهم ولا يفهمهم ما لا يطيقون حمله ولا يستطيعون فهمه ، ومن وجد في الحضرة فقد عراه الصمت المطلق في باطن أسرارهِ ، ولو تكلم في الظاهر بموجب الشريعة وحال بشريته ، ولكنه يلهب القلوب لمجرد رؤيته من أنوار الحق التي تتجلى على باطنه ، ولذلك يذيق العارف محبيه حلاوة الإيمان بدون احتياج إلى بيان .

وقيل : المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب .

ويقول السوسى : لا تصلح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء على المحبة .

ويروون أن السرى رفع إلى الجنيد رقعة وهو يقول له : هذه خير من سبعمائة قصة أو حديث يعلو فإذا فيها :

ولما ادعيت الحب قال : كذبتنى

فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا

وتذبل حتى لا تجيب المناديا

وتحلّ حتى ليس يبقى لك الهوى

سوى مقلة تبكى بها وتناجيا

ومما يروى أيضًا - في هذا السياق - أن يحيى بن معاذ كتب إلى أبى يزيد

البسطامي قائلاً : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته .
فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى
بعد ، ويقول هل من مزيد ؟
وأنشد :

عجبت لمن يقول : ذكرت إلفي
وهل أنس فأذكر ما نسيتُ
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا
ولولا حسن ظني ما حييتُ
شربنا الحب كأساً بعد كأس
فما نفذ الشراب وما رويتُ
فأحيا بالمني وأموت شوقاً
فكم أحيا عليك وكم أموتُ
ويقول عبد الله بن المبارك :

من أعطى شيئاً من المحبة ولم يُعط مثله من الخشية فهو مخدوع .
وقيل : المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، ثم
السكر الذي يحصل عند الشهود لا يوصف .
وأنشدوا :

لى سكرتان والندمان واحدة
شئ خُصصتُ به من دونهم وحدي .
ويقول يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إلي من عبادة
سبعين سنة بلا حب .

وتذاكر قوم المحبة في حضرة ذى النون المصرى فقال : كفوا عن هذه
المسألة لا تسمعها النفوس فتدعيها ، ثم أنشأ يقول :

الخوف أولى بالمسئىء
إذا تألأه والحرز
والحب يجمّل بالتقى
وبالنقى من الـدرن

ويروون أن قوماً جلسوا يتذاكرون المحبة في الكعبة ، وكان الجنيد
أصغرهم سنّاً فطلبوا إليه الكلام ، فأطرق برأسه ودمعت عيناه ثم
قال: عبداً ذاهل عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ناظر
إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوار هويته ، وصفا شربه من كأس وده ،
وانكشف له الجبار عن أستار غيبه فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله
وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ومع الله ، فبكى
القوم وقالوا : ما على هذا مزيد ، جَبَرَكَ اللهُ يا تاج العارفين .
والجنيد هو القائل :

وتحققتك في سرى
فناجياك لسانى
فاجتمعنا لمعان
وافترقنا لمعان
إن يكن غيبك التعظيم
عن لفظ عيانى
فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دان

وهو القائل أيضًا في معنى المشاهدة :
حاضرٌ في القلب يعمره
لست أنساه فأذكره
فهو مولاي ومعتـمـدى
ونصيبى منه أوفره

وقيل : أوصى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود إنى حرمت
على القلوب أن يدخلها حبي وحب غيرى .

ويروى عن أبى سعيد الخراز أنه قال : رأيت النبى - صلى الله عليه
وسلم - فى المنام ، فقلت له : يا رسول الله اعذرنى ، فإن محبة الله تعالى
شغلتنى عن محبتك ، فقال : يا مبارك ، من أحب الله فقد أحببنى .

ونطالع فى هذه السطور لأبى الحسن الشاذلى - أحد أقطاب
العارفين بالله والمتصلين بأسرار الحب الإلهى - اقترابًا من حدود هذا
العالم الروحى السمح والأفق النورانى السامى ، وهو يتحدث عن
الأنس الربانى وشوارق الأنوار ولوائح الأسرار ويقف عند الأحوال
والمقامات ، يقول أبو الحسن :

« أول منزل يطوّه المحب للترقى منه إلى العلا : النفس ، فإذا اشتغل
بسياستها ورياضتها إلى أن انتهى إلى معرفتها وتحققها أشرقت عليه
أنوار المنزل الثانى وهو القلب ، فإذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ولم
يبق منه عليه شىء ، أشرقت عليه أنوار المنزل الثالث وهو الروح فإذا
اشتغل بسياسته وتمت له المعرفة هبت عليه أنوار اليقين شيئاً فشيئاً

إلى تمام نهاياته ، وهذه طريق العامة ، وأما طريق الخاصة فهى طريق
 مسلوكة ، تضمحل العقول فى أقل القليل من شرحها . ويقول : « من
 أمد الله تعالى بنور العقل الأصلي شهد موجوداً لا حد له ولا نهاية ،
 بالإضافة إلى هذا العبد ، وضمحلت جميع الكائنات فيه ، فتارة
 يشهدا فيه كما بنية فى الهواء بواسطة نور الشمس ، وتارة لا يشهد
 انحراف نور الشمس من الكوة ، فالشمس التى يبصر بها هى العقل
 الضرورى بعد المادة بنور اليقين ، وإذا اضمحل هذا النور ذهبت
 الكائنات كلها وبقي هذا الوجود ، فتارة يفنى وتارة يبقى ، حتى إذا
 أريد به الكمال نودى فيه نداء خفياً لا صوت له ، فيمد بالفهم عنه ، ألا
 إن الذى يشهد غير الله تعالى ليس من الله فى شيء ، فهناك يتنبه من
 سكراته فيقول : يارب ثبتنى وإلا فأنا هالك ، فيعلم يقيناً أن هذا الحب
 لا ينجيه منه إلا الله عز وجل فحينئذ يقال له : إن هذا الموجود هو العقل
 الذى قال فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أول ما خلق الله
 العقل ، فأعطى هذا العبد الذل ، والانقياد لنور هذا الموجود ، إذ لا يقدر
 على حدّه وغايته ، فإذا أمد الله هذا العبد بنور أسمائه قطع ذلك كلمح
 البصر ، أو كما شاء الله تعالى : نرفع درجات من نشاء ، ثم أمد الله
 تعالى بنور الروح الربانى فعرف هذا الموجود فرقى إلى ميدان الروح
 الربانى ، فذهب بجميع ما تحلّى به هذا العبد ، وما تلى عنه
 بالضرورة ، وبقي كلا موجود ، ثم أحياء الله بنور صفاته فأدرجه بهذه
 الحياة فى معرفة هذا الموجود الربانى فلما استنشق من مبادئ صفاته
 كاد يقول : هو الله . فإذا لحقته العناية الأزلية نادته : ألا إن هذا الموجود

هو الذى لا يحق لأحد أن يصفه ، ولا يعبر عنه شىء من سر صفاته لغير أهله ، لكن بنور غيره يعرفه فإذا أمده الله بنور سر الروح وجد نفسه جالساً على باب ميدان السرّ ، فرفع همته يعرف هذا الموجود الذى هو السرّ ، فعصى عن إدراكه فتلاشت جميع أوصافه كأنه ليس بشىء ، فإذا أمده الله تعالى بنور ذاته أحياء حياة باقية لا عاقبة ولا غاية لها ، فينظر جميع المعلومات بنور هذه الحياة ، ووجد نور الحق شائعاً فى كل شىء لا يشهد غيره ، فنودى من قريب : لا تغتر بالله ، فإن المحجوب من حجب عن الله بالله ، إذ محال أن يحجبه غيره ، وهناك يحيا حياة استودعها الله تعالى فيه ، ثم قال : أعوذ بك منك حتى لا أرى غيرك ، وهذا هو سبيل الترقى إلى حضرة العلى الأعلى ، وهو طريق المحبين الذين هم أبدال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما يعطيه الله تعالى لأحدهم من بعد هذا المنزل لا يقدر أحد أن يصف منه ذرة ، والحمد لله على نعمائه .

وأما طريق المحبوبين الخاصة بهم ، فإنه ترقى منه إليه به ، إذ محال أن يتوصل إليه بغيره ، فأول قدم لهم بلا قدم ، إذ ألقى عليهم نور ذاته ، فغيبهم بين عباده وحبب إليهم الخلوات وصغرت لديهم الأعمال الصالحات ، وعظم عندهم رب الأرض والسماوات ، فبينما هم كذلك إذ ألبسهم ثوب العدم ، فنظروا فإذا هم لاهم ، ثم أردف عليهم ظلمة غيبتهم عن نظرهم ، فصار نظرهم عدماً لا علة له ، فانطمست جميع العلل ، وزال كل حادث ، فلا حادث ولا وجود ، بل ليس إلا العدم الذى لا علة له ، فلا معرفة تتعلق به ، اضمحلت المعلومات ،

وزالت الرسومات زوالاً لا علة فيه ، وبقي من أشير إليه ، لا وصف له ولا صفة ولا ذات ، واضمحت النعوت والأسماء والصفات كذلك ، فلا اسم ولا صفة ولا ذات ، فهناك ظهر ما لم يزل ظهوراً لا علة فيه ، بل ظهر بسره لذاته في ذاته ظهوراً لا أولية له ، بل نظر من ذاته لذاته في ذاته ، وهناك يحيا العبد بظهور حياة لا علة لها ، وصار أولاً في ظهوره لا ظاهراً قبله ، فوجدت الأشياء بأوصافه وظهرت بنوره في نوره سبحانه وتعالى . ثم يغطس بعد ذلك في بحر بعد بحر إلى أن يصل إلى بحر السر فإذا دخل بحر السر غرق غرقاً لا خروج له منه أبد الآباد ، فإن شاء الله تعالى بعثه نائباً عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، يحيى به عباده ، وإن شاء ستره يفعل في ملكه ما يشاء .

ويقول أبو الحسن الشاذلي : « لا يوصف العبد بأنه قد هجر المعاصي إلا إن كانت لم تخطر له على بال ، فإن حقيقة الهجر نسيان المهجور ، هذا في حق الكاملين ، فإن لم يكن كذلك فليهجر على المكابدة والمجاهدة . »

ويقول أيضاً : لن يصل العبد إلى الله تعالى وبقي معه شهوة من شهواته ، ولا مشيئة من مشيئاته ، ولن يقتل هو نفسه حتى يأخذها بالقوة وشدة المجاهدة إلى أن يذلها تذليلاً ويروضها على نسيان ذاتها ، فيقف عند حد الذل إلى الله تعالى .

وفي ذلك يقول عمر بن الفارض :

وما ظفرت بالودّ روح مُراحّة
ولا بالولا نفس ، صفا العيش ودّت

وأين الصفا؟ هيهات بالعيش عاشقٌ
 وجنة عدن بالمكانه حُفَّتِ
 ولى نفس حرٌّ لو بذلت لها على
 تسليك ما فوق المنى ما تسلَّتِ
 ولو أبعدت بالصدِّ والهجر والقلَى
 وقطع الرِّجا من خلَّتِي ما تخلَّتِ
 وعن مذهبي في الحب ما لي مذهبٌ
 وإن ملت يوماً عنه فارقت ملَّتِي
 ولو خطرت لي في سواك إرادة
 على خاطري سهواً قضيت بردَّتِي

ويقول بعض العارفين من المحبين : « لولا الحب لم يخلق الله في
 الناس حياة ، فالحياة حب الله هي السعادة والوجود ، وفي غير حب الله
 هي الشقاء والفقد . وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ
 من دون الله آندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشدَّ حبا لله ، ولو
 يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد
 العذاب ﴾ .

فالمخلوق يحن إلى خالقه بضرورة وجوده ، لا يجد محبوباً أسمى
 في الله ، ولا يجد راحة إلا في السكون إليه وغنىً إلا به ، ولا جمالاً إلا في
 التشويق إليه ، والخالق يحن إلى من خلق ببره ورحمته ، وبحكم احتياج
 المخلوق إلى خالقه إلا إذا كان من الكافرين الأشقياء ، أو ذل بالحب
 المادى حتى هلك فيه .

وهو شبيهه بقول من قال : سألت ربى بأى شىء أصل إليك يارب ؟
فقال : اترك نفسك وتعال .

فإذا قتل حب النفس والأنانية والشهوات ، عاش لله بلا نفس ،
وكانت الروح القدسية هى المتغلبة على النفس فمحتها وعاش بها
محلّقاً فى سماء القدس لا يهوى الدنيا وأهلها .

ويقول ذو النون المصرى : الأنس بالله نور ساطع ، والأنس بالناس
سم قاطع . الشوق أعلى الدرجات والمقامات إذا بلغه العبد استبطأ
الموت شوقاً إلى ربه ، وحبّاً للقائه والنظر إليه .
ويقول : مدار الطريق على أربع : حب الجليل ، وبغض الفانى
القليل ، واتباع التنزيل .

ويقول :

لا لأنى أنساك أكثر ذكراك
ولكن بذاك يجرى لسانى

ويقول :

ذكرنا وما كنا لننسى فنذكرُ
ولكن نسيم القرب يبدو فيظهرُ
وأحيا به عنى وأحيا به له
إذ الحق عنه مخبرٌ ومعبّرُ
ومن أشعاره فى الحب الإلهى :

أنت فى غفلة وقلبك ساهى
فغدا العُمرُ والذنوب كماهى

جمّةٌ أحصيت عليك جميعاً
 في كتاب وأنت عن ذاك لاهى
 لم تبادر بتوبةٍ منك حتى
 صرت شيخاً فحبلك اليوم وإه
 فاجتهد في فكاك نفسك واحذر
 يوم تبدو السّماتُ فوق الجباه
 وتصل الحال بالعارفين والعاشقين إلى أعلى درجات الذكر ،
 والمشاهدة فيفيض البيان بما عجز عن كتمان القلب واللسان .
 يقول الشبلى الذى كان يقوم بالليل ويكتحل من الملح ليعتاد السهر
 ولا يأخذ النوم :

ذكرتك ، لا أنى نسيّتك لحظة
 وأيسرُ ما فى الذكر ذكر لسانى
 وكدت بلا وجد أموت من الهوى
 وهام على القلب بالخفقان
 فلما أرانى الوجد أنك حاضرى
 شهدتك موجوداً بكل مكان
 فخاطبتُ موجوداً بغير تكلم
 ولاحظت معلوماً بغير عيان
 ويقول النابلسى الذى شغلت أنكاره الناس فى مصر والشام
 والعراق لما فيها من عذوبة الإيقاع وجيشان النغم وخفة الروح فى
 أنشودة الساقى :

ساقى يا ساقى
اسقنى من خمره الباقى
واكشف لى عن قيد إطلاقى
آه يا ساقى ، آه يا ساقى
أسـتاره راحت
عن عيني والزهرة فاحت
والسكرة بالأسرار باحت
آه يا ساقى ، آه يا ساقى
اكشف لى عنـك
فى ذاتى وافتح لى دـنـك
واجعلنى يا حبي أنـك
آه يا ساقى ، آه يا ساقى
افتح لى باب الحان
واسمعنى من طيب الألحان
وارشفنى من كأسى الملاـن
آه يا ساقى ، آه يا ساقى
من يشرب يسـكر
من خمرى لما يتفـكر
والمغرور فى علمه أنـكر
آه يا ساقى ، آه يا ساقى

لا يعرفُ أمرى
إلا من يشرب خمري
أحشاؤه تصلى في جمرى
آه يا ساقى ، آه يا ساقى
ويقول النابلسى فى تجليات وجه المحبوب ، وهى مقطوعة ذاعت فى
حلقات الأذكار عن المتصوفة والعشاق :
تجلّى وجهه محبوبى
وهذا كُـلّ مـطـلـوبى
فيانار العدا ذوبى
بعيدٌ عنك مشروبى
جمال الأهيف الزاهى
وحسنُ الأغيد الباهى
به صبرى هو الواهى
وموتى فيه مرغوبى
رأينا نوره أشرق
فكنا برقه الأبرق
ولا نجد ولا أبـرق
سوى الإبريق والكوب
علينا الخمر قد دارت
بها البائنا حارت

وأطيار الهوى طارت
بترتيب وأسلوب
مليح الكون وأفاننا
وزاد الحسنُ احسانا
وحيا يوسف الآننا
فقررت عينُ يعقوب
ويروون أن أبا حمزة الخراساني كان يقول : من استشعر ذكر
الموت حَبَّبَ الله إليه كل باقٍ وبَغَّضَ إليه كل قانٍ .
وقال له رجل : أوصني ، فقال له أبو حمزة : هي زادك للسفر الذي
بين يديك .

ومن أشعاره في معنى الشهود والرضا بالحبيب :
أهابك أن أبدى إليك الذي أخفى
وسرّي يبدى ما يقول له طرقي
نهاني حيائي منك أن أكتم الهوى
وأغنيتني بالفهم منك عن الكشفِ
ويروون أن سحنون المحب سئل ذات يوم عن التصوف فقال : هذا
مذهب كله جدّ فلا تخلطوه بشيء من الهزل .

ومن أقواله : من علامة الاغترار أن تسيء فيحسن الله إليك فتترك
الإنابة والتوبة توهماً أنك تسامح في الهفوات وترى أن ذلك من بسط
الحقّ عليك.

ويقول : الفقير الصادق الذى يأنس بالعدم كما يأنس الجاهل بالغنى ، ويستوحش من الغنى كما يستوحش الجاهل من الفقير .

ويقول سحنون واصفاً حال المحبين العارفين :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر

وتذكراهم وقت المناجاة للسر

ولا عيش إلا مع رجال قلوبهم

تحن إلى التقوى وترتاح للذكر

أديرت كئوس للمنايا عليهم

فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذى السكر

همومهمو جواله بمعسكر

به أهل ود الله كالأنجم الزهر

فأجسادهم في الأرض قتلى بحبه

وأرواحهم في الحجب نحو العلاتسرى

فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم

وما عرجوا عن مس يؤس ولا ضر

سكون إلى روح اليقين وطيبه

كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر

وسحنون هو القائل :

كان لي قلب أعيش به

ضباع منى في قلبه

رب فارده على فقد

ضباق صدرى في تطلبه

وأغثُ مادام بى رمقٌ

يا غياث المستغيث به

ويقول الإمام القشيري :

الغيبة غيبة القلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق لاشتغال
الحس بما ورد عليه ، ثم قد يغييب عن إحساسه بنفسه وغيره ، بوارد
من تذكر ثواب أو تفكّر عقاب .

ويروون عن علي بن الحسين أنه كان في سجوده فوقع حريق في
داره فلم ينصرف عن صلاته ، فسئل عن حاله فقال : ألتهنى النار
الكبرى عن هذه النار .

ويقول بعض العارفين :

إن المحب يكون في المظهر كسائر الناس ، لكنه في الحقيقة غائب
عنهم في طلب مراده ، ويستوى عنده الموت والحياة ، مادامت روحه
متعشقة لذات حبيبه مسلمة له في جميع الأمور . فحياته فناؤه وفناؤه
حياته ، ولو علم الناس حقيقة البقاء في حضرة الحق وانكشف لهم
الحجاب لم يزاولوا أمراً من أمور الدنيا ، وتراموا على أعتاب البقاء لما
فيه من السعادة .

ومن هنا جاء شعرهم :

قد شربنا من حبه فسكرنا

وعرفنا من أين نأتى الجوارا

ودخلنا دار الكرامة نروى

بيقين الهوى وكننا حيامرى

اعذرونا إذا نهيم ، فإننا
 في ديار الهوى خُلِقنا أسارى
 وترانا من حيث نشرب في الكأس
 سُكارى ولم نكن بسُكارى
 نتحلّى بالعلم في كل نادٍ ،
 ونُرى بالتقى علينا إزارا
 فقلوب مثل الكواكب فينا
 تُظهر النور فهو لا يتوارى

وامتلأت كتب تراثنا العربى بالكثير من أجوبة المحبين العارفين ،
 أهل التصوف والعشق الإلهى ، لما حفلت به من جوامع الكلم ، ومن
 نماذج بليغة ، رفيعة التعبير ، مشرقة البيان ، فضلاً عن امتلائها بكل ما
 يُزِين مكارم الأخلاق .

قيل لسهل بن عبد الله المروزيّ : مالك تكثر التصديق ؟ فقال :
 لو أن رجلاً أراد أن ينتقل من دار إلى دار ، أكان يُيقى في الأولى
 شيئاً ؟ .

وقيل للربيع بن خيثم وقد اعتل : ندعو لك بالطبيب ؟
 فقال : قد أردت ذلك فذكرت عاداً وثمروداً وأصحاب الرسّ وقروناً
 بين ذلك كثيراً ، وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوى فهلكوا جميعاً .
 وقيل لبعض الزهاد : ما أبلغ العظّات ؟ فقال : محلّة الأموات .
 وقيل للحسن البصريّ : كيف ترى الدنيا ؟ فقال : شغلنى توقع
 بلائها عن الفرح برخائها .

وقيل للفضيل بن عياض : إن ابنك يقول : وددت أنى فى مكان أرى الناس ولا يروننى .

فقال : يا ويح ابنى ، أفلا أتمها فقال : لا أراهم ولا يروننى .

وقيل لبعض الصوفية : أى شىء أعجب عندك ؟

فقال : قلب عرف الله ثم عصاه .

وقيل لآخر : مالك كلما تكلمت بكى من يسمعك ، ولا يبكى من كلام

واعظ المدينة أحد ؟

فقال : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة .

وقيل للربيع بن خيثم : ما نراك تغتاب أحداً ، فقال : لست عن حالى

راضياً حتى أتفرغ لذم الناس .

وقيل لعبد الله بن المبارك : حتى متى تكتب كل ما تسمع ؟

فقال : لعل الكلمة التى تنفعنى لم أكتبها بعد .

وقيل لصوفى : ما صناعتكم ؟

فقال : حسن الظن بالله وسوء الظن بالناس .

وقيل للشبلى : لم سمى الصوفى ابن الوقت ؟

فقال : لأنه لا يأسف على الفائت ولا ينتظر الوارد .

وقيل لابن السماك : ما الكمال ؟

فقال : الكمال أن لا يعيب الرجل أحداً بعيب فيه مثله حتى يصلح

ذلك العيب من نفسه ، فإنه لا يفرغ من إصلاح عيب حتى يهجم على

آخر فتشغله عيوبه عن عيوب الناس ، وأن لا يطلق لسانه ويده حتى

يعلم أفى طاعة أم فى معصية ، وأن لا يلتمس من الناس إلا ما يعلم أنه

يعطيهم من نفسه مثله ، وأن يسلم من الناس باستشعار مداراتهم ،
وتوفيته حقوقهم ، وأن ينفق الفضل من ماله ويمسك الفضل من
قوله.

وقيل للشبلي : من الرفيق ؟

فقال : من أنت غاية شغله .

ويقول ابن عطاء الله السكندري :

دخلت على الشيخ - رضى الله عنه - وفي نفسى العزم على التجريد
قائلاً فى نفسى : « إن الوصول إلى الله تعالى على هذه الحالة بعيد مع
الاشتغال بالعلوم الظاهرة ووجود المخالطة للناس » فقال لى من غير
أن أسأله :

صحبنى إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدر فيها فذاق من
هذه الطريق شيئاً ، فجاء إني فقال : يا سيدى أخرج عما أنا فيه وأتجرد
لصحبتك ، فقلت له : ما الشأن ذاك ، ولكن امكث فيما أنت فيه ، وما
قسم الله لك على أيدينا فهو إليك واصل ، ثم قال الشيخ - ونظر إني -
« وهكذا شأن الصديقين لا يخرجون من شىء حتى يكون الحق
سبحانه وتعالى هو الذى يتولى إخراجهم ، فخرجت من عنده وقد غسل
الله تلك الخواطر من قلبى ، وجدت الراحة بالتسليم إلى الله تعالى » .

ويقول ابن عطاء الله :

إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شىء ، لغيبتهم عن الله فى كل
شىء ، ولو شهدوه فى كل شىء ، لم يستوحشوا من شىء .

ويقول :

علم منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه . لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ، ومحو ذنوبك لم تصل إليه أبداً ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ، ونعتك بنعته ، فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه .

ويقول :

حظ النفس في المعصية ظاهر جلّ ، وحظها في الطاعات باطن خفى ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه .

ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك .

ويقول ابن عطاء الله في استغاثاته :

إلهى : أنا الفقير في غناى ، فكيف لا أكون فقيراً في فقرى .

إلهى : أنا الجاهل في علمى ، فكيف لا أكون جهولاً في جهلى .

إلهى : وصفت نفسك باللطف والرافة بى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منهما بعد وجود ضعفى .

إلهى : إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنّة علىّ ، وإن ظهرت

المساوىء فبعدلك ولك الحجة علىّ ، ها أنا أتوسل إليك بفقرى

إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ؟ أم كيف

أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك ، أم كيف أترجم لك بمقالى

وهو منك برز إليك ؟ أم كيف تخيب آمالى وهى وفدت إليك ؟ أم

كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك ؟

وينفتح أمام قلبه باب الرجاء فيقول :

إلهى : كلما أخرجنى لؤمى أنطقنى كرمك ، وكلما آيستنى أوصافى

أطمعنتى منتك .

وينكر ابن عطاء الله أن تكون الكائنات هي الشاهد على وجود الله
فيقول :

إلهى : كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟
أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟
متى غبت حتى نحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى
تكون الآثار هي التي توصل إليك .

إلهى : أمرت بالرجوع إلى الآثار ، فأرجعني إليها بكسوة الأنوار ،
وهداية الاستبصار ، حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها
مصون السر عن النظر إليها ، ومرفوع الهمة عن الاعتماد
عليها ، إنك على كل شيء قدير .

ويتلطف على الوصول إلى الله فيقول :

إلهى : منك أطلب الوصول إليك ، وبك أستدل عليك فاهدنى بنورك
إليك ، وأقمنى بصدر العبودية بين يديك .
إلهى : تقدس رضاك عن أن تكون له علة منك ، فكيف تكون له علة
منى ، أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لا
تكون غنياً عنى .

ويقول ابن عطاء الله : إلهى ، إن رجائى لا ينقطع عنك وإن
عصيتك ، كما أن خوفى لا يزيالك وإن أطمعتك .

ويشير الدكتور زكى مبارك في كتابه عن التصوف الإسلامى إلى أن
لابن عطاء الله كلمات سارت مسير الشمس ، فكانت شاهداً على قوته

الروحية ، من بينها قوله : إلهي ، هذا ذلي ظاهر بين يديك ، وهذا حالي لا يخفى عليك ، بك أستنصر فأنصرني ، وعليك أتوكل فلا تكلني ، وإياك أسأل فلا تخيبيني وفي فضلك أرغب فلا تحرمني ، ولجناحك أنتسب فلا تبعدني ، وببابك أقف فلا تطردني .

ويقول إسحاق بن إبراهيم السرخسي : سمعت ذا النون وفي يده الغل - أي القيد - بعد أن سيق إلى الخليفة المتوكل من مصر إلى بغداد مقيداً مغلولاً لأن بعض من لم يفهموه وشوا به واتهموه في دينه - وهو يساق إلى الموت والناس سيكون حوله وهو يقول :
هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياها ، وكلُّ فعالة عذب حسن طيب ، ثم أنشد :

لك من قلبى المكان المصونُ
كلُّ لوم علىّ فيك يهونُ
لك عزمٌ بأن أكون قتيلاً
فيك ، والصبر عنك ما لا يكونُ

ومن أقوال ذى النون : الصوفية قوم آثروا الله على كل شيء فآثروهم على كل شيء . ومن وصاياه الماثورة عند الصوفية :

ليس بذى لبٍ من كاس (أى التزم بالكياسة) في أمر دنياه وجمق في أمر آخرته ، ولا من سفه في مواطن حلمه ، وتكبر في مواطن تواضعه ، ولا من فقد منه الهوى في مواضع طعمه ، ولا من غضب من حق إن قيل له ، ولا من زهد فيما يرغب العاقل عن مثله ، ولا من زهد فيما يزهد الأكياس في مثله ، ولا من استقل الكثير من خالقه عز وجل ،

واستكثر قليل الشكر من نفسه لغيره ، ولا من نسي الله في مواطن طاعته ، وذكر الله في مواطن الحاجة إليه ، ولا من جمع العلم فعرف به ثم أثر عليه هواه عند متعلمه ، ولا من قلّ منه الحياء من الله على جميل ستره . ولا من أغفل الشكر عن إظهار نعمته ، ولا من عجز عن مجاهدة عدوه لنجاته إذا صبر عدوه على مجاهدته ، ولا من جعل مروءته لباسه ، ولم يجعل أدبه درعه وتقواه لباسه ، ولا من جعل علمه ومعرفته تظرفاً وتزييناً في مجلسه .

ثم يقول :

أستغفر الله ، إن الكلام كثير ، وإن لم تقطعه ينقطع ، لا تخرجوا من ثلاثة : النظر في دينكم بإيمانكم ، والتزود لآخرتكم من دنياكم والاستعانة بربكم فيما أمركم به ، ونهاكم عنه .

ويقول يحيى بن معاذ : يكاد رجائي لك مع الذنوب ، يغلب رجائي لك مع الأعمال ، لأنى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الإخلاص ، وكيف أحررها من الرياء وأنا بالآفة معروف ، وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف ؟

ويروى السراج الطوسى أن رجلاً وقف على الشبلى فقال له : أى صبر أشد على الصابرين ؟ فقال : الصبر لله ، فقال الرجل : لا ، فقال الشبلى : الصبر مع الله ، فقال الرجل : لا ، فغضب الشبلى وقال : ويحك ، فماذا ؟ فقال الرجل : الصبر من الله عز وجل .

فصرخ الشبلى صرخة كادت تتألف روحه .

ثم يقول السراج : وسألت ابن سالم بالبصرة عن الصبر فقال : هو

على ثلاثة أوجه : متصبر وصابر وصَبَّار ، فالمتصبر من صبر في الله تعالى ، فمرة يصبر على المكاره ومرة يعجز ، والصابر من يصبر لله وفي الله ولا يعجز ، وأما الصَبَّار فذلك الذي صبره في الله والله وبالله ، فهذا لو وقعت عليه جميع البلايا لا يعجز ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة لا من جهة الرسم والخلقة .

وبانتقال التجربة الصوفية في التعبير عن الحب الإلهي - نثرًا وشعرًا - إلى محيي الدين بن عربي ، تزداد لغتها قوة وحرارة ورصانة، وتمتلئ بالتعابير والاصطلاحات والرموز التي يتطلب فهمها واستيعابها شروحًا وذيولًا وإفاضات تفتح بها مغاليق ذلك العالم الواسع الرحيب الذي يحلق فيه ابن عربي ويطوف ، في مشاهد أنسه ومجالي تجلياته .

ويعده الدكتور زكي مبارك في كتابه « التصوف الإسلامي » من طبقة الكتاب العظام ، ويرى أن نثره يمتاز بميزة عجيبة ، هي أنه لا يشغلك بالالفاظ ، وإنما يشغلك بالمعاني ، ففي كل صفحة من كتبه معركة عقلية ، فالقوة البيانية عنده قوة فكرة لا قوة تهويل .

يقول ابن عربي :

كنت أطوف ذات ليلة بالبيت قطاب وفتى ، وهزنى حال كنت أعرفه ، فخرجت من البلاط من أجل الناس وطففت على الرمل ، فحضرتني أبيات فأنشدتها أسمع بها نفسى ومن يلينى لو كان هناك أحد ، فقلت :

ليت شعري هل دروا أي قلب ملكوا
وفؤادي لو درى أي شعب سلکوا
أتراهم سلموا أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى في الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلا بضربة بين كتفي بيد ألين من الخز ، فالتفت فإذا
بجارية من بنات الروم لم أر أحسن وجهًا ولا أعذب منطقًا ، ولا أرقَّ
حاشية ، ولا اللطف معنى ولا أدق إشارة ، ولا أظرف محاورة منها ، قد
فاقت أهل زمانها ظرفًا وأدبًا وجمالًا ومعرفة ، فقالت : يا سيدي كيف
قلت ؟ فقلت :

ليت شعري هل دروا أي قلب ملکوا
فقلت :

عجبًا منك وأنت عارف زمانك ، تقول مثل هذا ؟
أليس كل مملوك معروفًا ؟ وهل يصح الملك إلا بعد المعرفة
وتمنى الشعور يؤذن بعدمها ، والطريق لسان صادق ،
فكيف يجوز لمثلک أن يقول هذا ؟ قل يا سيدي ، فماذا قلت
بعده ؟

قلت :

وفؤادي لو درى أي شعب سلکوا
فقلت :

يا سيدي ، الشعب الذى بين الشغاف والفؤاد هو المانع له

من المعرفة ، فكيف يتمنى مثلك ما لا يمكن الوصول إليه إلا
بعد المعرفة والطريق لسان صدق ، فكيف يجوز لمثلك أن
يقول هذا ؟ يا سيدي ، فماذا قلت بعده ؟

فقلت :

حار أربابُ الهوى في الهوى وارتبكوا

فصاحت وقالت :

يا عجبا ، كيف يبقي للمشغوف فضلة يحار بها ، والهوى شأنه
التعميم يخدر الحواس ، ويذهب العقول ، ويدهش الخواطر ويذهب
بصاحبه في الذاهبين ، فأين الحيرة وما هنا باق فيحار ، والطريق لسان
صدق والتجوز من مثلك غير لائق ، فقلت :

يا بنت الخالة ، ما اسمك ؟ فقالت : قرّة العين ، فقلت : لى ! ثم سلمتُ
وانصرفت ثم إنى عرفتُها بعد ذلك وعاشتُها فرأيت عندها من لطائف
المعارف ما لا يصفه واصف .

ومن الآثار الجميلة لابن عربي أبيات يقول فيها :

ذبت اشتياقاً ووجداً في محبتكم
فأه من طول شوقي أه من كمدى
يدى وضعت على قلبي مخافة أن
ينشق صدرى لما خاننى جلدى
ما زال يرفعها طوراً ويخفضها
حتى وضعت يدي الأخرى تشد يدي

ومن منظوماته التي يقعد فيها للتصوف ، ويضمنها خلاصة أفكاره ونظرته - في الإشارة إلى الألفة بين العبد والرب - مقطوعة يقول فيها :

كَلَّمَا قُلْتُ : سَيِّدِي	قَالَ لِي : أَنْتَ مَالِكِي
سَدَّ وَاللَّهِ كَوْنُ	عَبْدِي عَلَى مَسَالِكِي
مَالِنَا عَنْهُ صَارَفُ	فِي جَمِيعِ الْمَدَارِكِ
لَسْتُ فِي عَيْنِهِ وَلَا	فَعَلِهِ بِالْمُشَارِكِ
فَهُوَ الْمَالِكُ الَّذِي	لَيْسَ يَدْعَى بِمَالِكِ
وَأَنَا الْخَادِمُ الَّذِي	يَعْتَنِي بِالْمَمَالِكِ
قُلْتُ يَا رَبَّ عَصْمَةَ	مِنْ سَبِيلِ الْمَهَالِكِ
قَالَ : سَمْعًا فَأَنْتَ عَبْدِي	مَنْ أَهْلُ الْأَرَائِكِ
فِي سُرُورٍ وَغَبْطَةٍ	لَا مِنْ أَهْلِ الدَّرَائِكِ

ويوضح الدكتور محمود قاسم في كتابه عن (الخيال في مذهب محيي الدين بن عربي) كيف سبق ابن عربي شعراء الرومانتيكية في العصر الحديث إلى إدراك أن الخيال أعظم قوة خلقها الله ، وهو يرمى في المقام الأول إلى الربط بين الكشف الصوفي وهذه القدرة التي يصفها بأنها استمرار لعملية الخلق الإلهي : « فليس للقدرة الإلهية فيما أوجدته أعظم وجوداً من الخيال ، فبه ظهرت القدرة الإلهية والاقترار الإلهي ، فهو أعظم شعائر الله على الله ، ومن قوة حكم سلطانه ما تثبته الحكماء ، مع كونهم لا يعلمون مما قالوه ، ولا يوفونه حقه ، وذلك أن

الخيال - وإن كان من الطبيعة - فله سلطان عظيم على الطبيعة بما أيده الله من القوة الإلهية .

ومن هنا كان تفسير ابن عربى لما أنعم به الله عليه من فتوحات ضمنها كتابه « الفتوحات المكية » القائم على أن هذا الكتاب ليس إلا وليد تلك الصور الخيالية التى كان يتلقاها - كمحب - بعين الخيال فى حال اليقظة وأحياناً فى أحلامه ، ويصف هذا كله بأنه نوع من الإلقاء الإلهى الذى ينزل على قلبه . ويلجّ ابن عربى - خشية المسارعة إلى اتهامه - فى تأكيد أن ما يتلقاه من فيوض وفتوحات ليس شبيهاً بالوحي الذى اختص الله به رسله إذا انقطعت النبوة والرسالة بموت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإنما هو وجود إلهى ، أو هو ضرب من الحكمة ، تلك الحكمة التى لا يعلمها إلا من أوتىها « فهى هبة من الله تعالى » كما وهبنا وجود أعياننا ولم نكن شيئاً وجودياً .. وهذا الكتاب من ذلك النمط .. فوالله ما كتبت منه حرفاً إلا من إملاء إلهى ، وإلقاء ربانى ، أو نفث روحانى فى روع كيانى .. هذا جملة الأمر مع كوننا لسنا برسول مشرعين ولا بأنبياء مكلفين ، فإن رسالة التشريع ونبوة التكليف قد انقطعت عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلا رسول بعده ، ولا نبي يشرع ولا تكليف ، وإنما هو علم وحكمة وفهم من الله فيما شرعه على ألسنة رسله وأنبيائه عليهم سلام الله .. وما خط فى لوح الوجود من حروف العالم وكلمات الحق ، فالتنزيل لا ينتهى بل هو دائم دنيا وآخره :

الله أنشأ من طيٍّ وخولان
جسمى ، فعدلنى خلقا وسوانى

وأنشأ الحق لى روحاً مطهرة
فليس بنيان غيرى مثل بنيانى
إنى لأعرف روحا كان ينزل بى
من فوق سبع سماوات بفرقان
يريد قوله تعالى : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ .

[سورة الأنفال : الآية ٢٩]

ويؤكد الدكتور محمود قاسم^(١) كما يؤكد سائر الباحثين أن ابن عربى فى نثره وشعره - لم يحب أحدًا فى الحقيقة سوى الله ، ولكنه احتجب عن الله تعالى بحب زينب وسعاد وهند ولىلى والدينار والدرهم ، فكل هذه الضروب من الحب ليست إلا صورًا أو رموزًا لحقيقة كبرى لا يمكن التعبير عن جمالها وجلالها ، إلا إذا سلك العاشق لها سبيل الغزل والتشبيب لكى يصور فيها ما استطاع ، ما يختلج بفؤاده من حب وهيام .

يقول ابن عربى :

كل ما أذكره من طلل	أو ربوع أو مغان كل ما
وكذا إن قلت ها أوقلت يا	وألا ، إن جاء فيه ، أو أما
وكذا إن قلت هي أوقلت هو	أوهمو، أو هنّ جمعًا ، أو هما
وكذا إن قلت : قد أنجد لى	قدر فى شعرنا أو أتهما
وكذا السحب إذا قلت بكت	وكذا الزهر إذا ما ابتسما

(١) الخيال فى مذهب محبى الدين بن عربى (فصل عن الحب الإنسانى والحب الإلهى) للدكتور محمود قاسم .

أو أنادى بحدادة يميموا	بانة الحاجز أو ورق الحمى
أو بدور في خدود أفلت	أو شمويس أو نبات أنجما
أو بروق أو رعود أو صبا	أو رياح أو جنوب أو سما
أو طريق أو عقيق أو نقا	أو جبال أو تللال أو رما
أو نساء كاعبات نهدي	طالعات كشموس أو دمي
كل ما أذكره مما جرى	ذكره ، أو مثله أن تفهما
منه أسرار وأنوار جلت	أو علت جاء بها رب السما
لفؤادى أو فؤاد من له	مثل مالى من شروط العلما
صفة قدسية علوية	أعلمت أن لصدقى قدما
فاصرف خاطر عن ظاهرها	واطلب الباطن حتى تعلما

ومن هنا يمكن تذوق وتفسير الكثير من الآثار الشعرية لابن عربى،
فى الحب الذى وجده ذوقا ، ففاق كونه عشقا مفرطا ، وهوى مقلقا
وغراما ونحولا ، وامتناع نوع ، دون أن يتحدد المحبوب .

يقول ابن عربى :

علقت بمن أهواه عشرين حجة
ولم أدر ما أهوى ، ولم أعرف الصبرا
ولا نظرت عينى إلى حسن وجهها
ولا سمعت أذنائى قط لها ذكرا
إلى أن تراءى البرق من جانب الحمى
فنعمنى يوما ، وعذبنى دهرًا

ويقول فى المعنى نفسه :

علقت بمن أهواه من حيث لا أدري
 ولم أد من هذا الذى قال لا أدري
 فقد حرت فى حالى وحارت خواطرى
 وقد حارت الحيرات فى وفى أمرى
 فبيننا انا من بعد عشرين حجة
 أترجم عن حب يعانقه سرى
 ولم أد من أهوى ، ولا أعرف اسمه
 ولم أد من هذا الذى ضمّه صدرى
 إلى أن بدا لى وجهها من نقابها
 كمثّل سحب الليل أسفر عن بدر
 فقلت لهم : من هذه ؟ قيل هذه
 بُنْيَّةُ عين القلب ، بنت أخى الصدر
 فكبرت إجلالا لها ، ولأجلها
 فليلى بها أربى على ليلة القدر

ويروى ابن عربى فى كتابه ، « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار »
 حديثاً عن ابن باكويه عن أبى الفضل القطان عن جعفر الخلى قال :
 سمعت الجنيد يقول : حججت على الوحدة فجاورت مكة فكنت إذا جن
 الليل دخلت أطوف ، فإذا بجارية تطوف وهى تقول :
 أبى الحب أن يخفى وكم قد كتمته
 فأصبح عندى قد أناخ وطلبنا
 إذا اشتد شوقى هام قلبى بذكره
 وإن رمت قربان حبيبى تقربا

ويبدو فأفنى ، ثم أحيا بذكره
ويسعدنى حتى ألدَّ وأطربا
فقلت لها : يا جارية ، أما تتقين الله في هذا المكان ، تتكلمين بهذا
الكلام ؟ فالتفتت إليَّ وقالت : يا جنيد :

لولا التقى لم ترنى أهر طيب الوسن
إنَّ التقى شردنى كما ترى عن وطنى
أفر من وجدى به فحببه هيمنى

ثم قالت : يا جنيد ، تطوف بالبيت أم برب البيت ؟ قلت أطوف
بالبيت . فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : سبحانك ، ما أعظم شأنك في
خلقك ، خلق كالأحجار يطوفون بالأحجار ، ثم أنشأت تقول :

يطوفون بالأحجار ييغون قربةً
إليك ، وهم أقسى قلوباً من الحجرِ
وتاهوا ، ولم يدروا من التيه من همو
وحلوا محل القرب في باطن الفكرِ
فلو صدقوا في الود غابت صفاتهم
وقامت صفات الود للحق في الذكُرِ

قال الجنيد : فغشى علىَّ من قولها ، فلما أفقت لم أرها .
والتأمل في آثار هؤلاء المتصوفة والعشاق الهائمين في ساح الحب
الإلهى يرى أنها تصدر عن مبدئين يحكمان الأمر كله ، أولهما أن العقل
الإنسانى وحده غير كاف في الهداية إلى الله ، فليس فيه غناء في هداية

الإنسان إلى الإيمان الحق . ومن هنا ، فهم جميعاً يلجأون إلى القلب واستشعار الحب الإلهي طلباً لنور الهداية والإشراق العلوي . وهى السبيل المألوفة للنجاة عندهم . فالعقل - فى رأيهم - لا يستطيع حل كثير من المسائل .

يقول الغزالي وهو يتحدث عن الصوفية : « وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لى أن أخص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات^(١) وكان قد حصل معنى من العلوم التى درستها والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ، إيمان يقينى بالله تعالى ، وبالنبوة ، واليوم الآخر ، فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت فى نفسى ، لا بدليل معين محرر ، بل بأسباب وقرائن ، وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها » .

ويوضح الغزالي أن وصوله إلى طريق الأمن واليقين لم يكن بنظم دليل وترتيب وكلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر :

« وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف ، ومادام الأمر للذوق والكشف ، فطريق الصوفية إذن مفتاحها هو استغراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية فى الله » .

والمبدأ الثانى فى فكر هؤلاء المتصوفة من العشاق أن العاطفة

(١) المنقذ من الضلال - للغزالي تقديم الدكتور / عبد الحليم محمود .

لا العقل هى السبيل للوصول إلى الله ، يقول الغزالي « كان ذلك أول حال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حين تبتل ، حين أقبل إلى غار حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : إن محمداً عشق ربه » .

وهكذا كان الحب الجسدى فى آثار هؤلاء العشاق طريقاً إلى الحب الإلهى ، إذ الجمال فى الخليقة مرآة جمال الله ، وهؤلاء يذهبون فى شرحهم لخلق الكون إلى أن الأصل فيه الجمال الإلهى ، وذلك أن الصفة الجوهرية فى الجمال هى أنه بطبعه ميال إلى الظهور والإيحاء بنفسه . وهذا هو الباعث لدى الجمال الأقدس أن يخلق ليعرف بهم ، ويعتمد الصوفية فى هذا على الحديث القدسى : « كنت مخفياً فأردت أن أعرف فخلقت الخلق ، فبى عرفونى » .

ولما أراد ذو الكمال المطلق والجمال الاسمى أن يعرف ، كان لابد أن يعرف بمخلوقات فيها نقص وفيها شر ، ليبدل نقصهم على كماله وخيره كما يدل الظلام على النور ، وقد بقيت بالضرورة فيهم لمحات من أنوار مشوبة بألوان ظلمات ، وهذه اللمحات هى مرآة النور المطلق الذى لا لون له ، وتنأى الخلائق عن الله بمقدار انغماسها فى المادة وظلماتها ، لأنها تبعد بذلك عن النور المطلق المتصف به واجب الوجود . وتقرب من الكمال بمقدار بعدها عن ظلمات المادة وتعلقها بمظاهر الجمال والخليقة ، وهذا النجم هو مرآة ذى الجلال ، حتى ترقى بالحب الإلهى إلى الفناء فى الذات الإلهية ، وتعود بذلك إلى أصلها الذى صدرت عنه . فالجمال الإلهى هو الأصل فى الخليقة ، والفناء فيه عن

طريق المحبة هو طريق الارتقاء إلى العلم الأقدس ، ومن أسباب المحبة التأمل في جمال الوجود ، إذ أن ذلك الجمال فيض من جمال واجب الوجود .

فهؤلاء العشاق من المتصوفة - بتأملهم في جمال الخلق - يتقربون إلى جمال الحق ، وبطول تأملهم فيه ، يعترتهم تلك الشعور الفياض ، الذي يستغرقون فيه - حتى يصلوا إلى حالة الوجود - ويغيبون عن وعيهم الحسى ويعترتهم من الهيام بالله ما يرقصون فيه طرباً لاهجين بذكر الله أو مرددين اسمه على لسانهم في حلقات الذكر .

* * *

وهذه النماذج المختارة من قصائد الحب الإلهي عند أشهر العشاق والمتصوفة وأصدقهم تجربةً ووجدًا ذات قيمة فنية وإنسانية رفيعة ، حتى وإن لم نستطع الوصول إلى أعماق معانيها ودلالاتها الخبيثة . فهي أولاً تجارب حياتية صادقة لدى هؤلاء المتصوفة الحقيقيين الذين لم يكونوا في طريقهم أو مذهبهم بأدعياء . ومن شأن هذه التجارب الصادقة أن تثري الحياة إذا انسكب تصويرها والتعبير عنها من خلال أقلام ذوى المواهب والقدرة ، وفي هذا يفترق الأدب الصوفي عن أدب الصنعة والتكلف ، وعن أدب التكسب والارتزاق الذي منى به الشعر الغنائى العربى ، فاستنفذ طاقات شعرية خلاقية أو كاد يستنفدها ، كانت جديرة بما هو أرقى وأسمى من عطاء الفن والخلود لو انصرفت إلى تصوير ما عانته من تجارب الحياة والعصر ، مخلصاً في التعبير عن هواجس النفس وهموم الذات وتجارب الوجدان . ولقد

كان الصدق دعامة الأدب الصوفي في عصوره الأصلية - قبل أن يدركه التقليد على أيدي فقراء الموهبة وفاقدى التجربة - وكان صدق التناول فيما بين الشاعر ونفسه سبيلا إلى التجويد في التعبير عن حميا هذه التجارب ونضج تصويرها الفنى .

ومن هنا ، يلاحظ المتأملون فى هذه النماذج الرفيعة ، أن أدب الصوفية فى شعرهم ونثرهم - يخفى دلالتة الايجابية المستترة على الرغم من مظهره السلبي الخادع وطابع تشاؤمه الموغل فى الحزن . ذلك أن هذا الأدب - فى مجموعہ - كان هروبًا من الحياة وانسحابًا من الواقع المثقل بالأسى والظلم والتخلف ، ولكن المتصوفة عرفوا كيف يضيفون على هذا الهرب أبعادًا تتجاوز مجرد الشكوى والأنات ، وحزن الضعف والتوانى - عندما هربوا بفكرهم إلى الطبقات العليا من أجواء الروح المتعالية والنفس المتسامية والخيال الحرّ الطليق .

صحيح أن هؤلاء الصوفية - من العشاق - قد عزفوا عن نشدان السعادة فى هذه الحياة ، لأنهم يائسون من الظفر بها فى الحياة الدنيا ، واتجهوا مخلصين إلى نشدان سعادتهم فى العالم الآخر داعين إلى التعجيل بالرحيل من هذه الدنيا عازفين عن كل ما تحفل به من ماديات ومتع موقوته ، ولكنهم فى تبرير مسلكهم هذا قد صوروا - فى صدق وروعة وأصالة - ما حفلت به عصورهم من شرور ومآثم ، وكانوا فى هذا المجال أعمق إدراكًا وأقوى دلالة من سواهم من الكتاب والشعراء الذين جاروا عصورهم ومالئوا المستبدين بها ، وتستروا على ما زخرت به من زيف وطغيان ، وقد كان هذا الطغيان فى أكثر حالاته طغيان

سلطان المال في تلك المجتمعات التي استبد فيها سلطان الفرد كما انسحقت الغالبية تحت رchy الإقطاع فتلاشت مواهب كثيرة ، وتبددت طاقات خلاقة ووذتت أصوات كانت تُبشّر بانطلاقات جديدة عارمة ، وانطمست معالم الرأى السليم والفكر الناضج .

لهذا ، فلن نجد في تاريخ الآداب الإسلامية هجاء للملوك والمستبدين أشد مما صدر عن الصوفية ، ولا ضيقاً بالمال وعبادة والمستعبدين للناس عن طريقه كما نجد في أشعار الصوفية وأدبهم كلّ . إلى جانب ما قضوا به على الأثرة وحبّ الذات فيما صوروا ودعوا ، فالحب عندهم - يجب أن يتسع مجاله لحب الإنسان وخدمته والثناء له وهدايته ، دون بغض لأحد أو انتقام من أحد . ولعل « الحلاج » - الذى عاش في القرن الثالث الهجرى - أكثر من التصقت به هذه الإيجابية بين الصوفية ، وتتفق الروايات القديمة في سوقها لأخباره على الإشارة إلى دوره البارز في عصره حين دعا إلى مذهب سياسى وروحى يقوم على فقه معين ورياضيات صوفية تتميز كلها بالتطرف والشدة والإصرار على الوصول إلى الهدف مستهيناً بالعقبات ولو بلغت الموت نفسه ، وحاول أن يجد له أنصاراً بين الفقراء والطوائف المختلفة والمعارضين للدولة العباسية دون جدوى .

وفى أثناء القحط والمجاعة وخطر الدولة الفاطمية - على الدولة العباسية المشكة على السقوط أمامها - وارتفاع الأسعار ، وكسر السجون وإحراق الجسور وسقوط الوزارة وعزل الخلفاء ، وجد الوزير حامد بن عباس أن قتل الحلاج قد يشغل الناس ويخفف من

التوتر الاجتماعي والسياسي ويلقى الرعب في قلوب المعارضين ،
وانتهى الأمر بالحكم على الحلاج بالإعدام ، ضرب ألف جلدة ثم قطعت
أطرافه الأربعة وضربت عنقه وأحرقت جثته ثم ذرى رماده في دجلة
وحمل رأسه إلى خراسان حيث كان له فيها أصحاب وأتباع
ومريدون^(١).

يقول الحلاج في وصف موعد حب :

لى حبيب أزور في الخلوات

حاضر غائب عن اللحظات

ما ترانى أصفى إليه بسرى

كى أعى ما يقول من كلمات

كلماتٍ من غير شكلٍ ولا نقيطٍ

ولا مثل نغمة الأصواتِ

فكأنى مخاطبٌ كنت إياه

على خاطرى ، بذاتى لذاتى

حاضرٌ غائبٌ قريبٌ بعيدٌ

وهو لم تحوهِ رسومُ الصفاتِ

هو أدنى من الضمير إلى الوهم

وأخفى من لائح الخطراتِ

ويقول الحلاج — وهو معنى انتهبه من بعده كثير من الشعراء ،

(١) ديوان الحلاج « المقدمة » تحقيق الدكتور / كامل مصطفى الشيبى (بغداد) .

وأداروه على محاور عدة في الغزل الحسى ، بما يخرجهم عن طابعه
الصوفي الأصيل :-

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدننا
نحن ، مذكناً على عهد الهوى
نضربُ الأمثال للناس بنا
فإذا أبصرتنى أبصرتَه
وإذا أبصرتَه أبصرتنا
أيها السائل عن قصتنا
لو ترانا لم تُفرق بيننا
روحه روحى وروحي روحه
من رأى روحين حلت بدننا

ومن الأشعار المنسوبة إلى الحلاج ، والعميقة الدلالة في الإبانة من
مذهبه وأسلوبه في تمثيل الحب الإلهي ، مقطوعة ذاعت شهرتها على
اللسنة والأقلام ونسب بعض أبياتها إلى شعراء آخرين من شعراء
العصر العباسي وأصبح جزءاً من تراثه الغنائي .
يقول فيها الحلاج :

والله ما طلعت شمس ولا غربت
إلا وحبك مقرونٌ بأنفاسي
ولا جلستُ إلى قومٍ أحدثهم
إلا وأنت حديثي بين جُلّاسي

ولا ذكرتُكُ محزوناً ولا فرحاً
 وإلا وأنت بقلبي بينَ وسواسي
 ولا هممت بشرب الماء من عطش
 إلا رأيت خيلاً منك في الكاس
 ولو قدرتُ على الإتيان جئتكمو
 سعيّاً على الوجه أو مشياً على الراس
 ويا فتى الحيّ إن غنيت لي طرباً
 فغنّ وارحمتاً من قلبك القاسي
 ما لي وللناس كم يلحوننا سفهاً
 ديني لنفسي ودين الناس للناس

ويبدو أن المستشرق الفرنسي ما سينيون هو صاحب الفضل في إحياء ذكر الحلاج منذ بداية القرن العشرين ، عندما نشر ديوانه وكتابه الهام الطواسين والنصوص التي دارت حوله ، ونَبّه إلى أهمية الحلاج من خلال رسالته عنه التي أسماها « عذاب الحلاج » ومقاله الهام الذي أسماه « المنحنى الشخصي في حياة الحلاج » حيث تحدث عن عظاته ومواجهه وبثه لآراء الإصلاحية واتصاله ببعض وجوه الدولة العباسية وجمع الفقراء من حوله ، مما أدى إلى نهاية الحلاج المأساوية جزاء فكره وثوريته ، وهو المعنى نفسه الذي أخذ به الشاعر الراحل صلاح عبد الصبور حين كتب مسرحيته الشعرية عن مأساة الحلاج ، جاعلاً منه داعية ورمزاً للثورة والتمرد ونصيراً للفقراء والمعدمين ، وشهيداً من شهداء الكلمة والإيمان بالحرية .

يقول صلاح عبد الصبور على لسان الحلاج :

أراد الله أن تجلى محاسنه وتستعلن أنواره
فأبدع من أثير القدرة العليا مثلاً صاغه طينا
وألقى بين جنبيه ببعض الفيض من ذاته
وحلاه وزينه ، فكان صنيعه الإنسان
فنحن له كمرآة ، يطالع فوق صفحتها
جمال الذات مجلوا ، ويشهد حسنه فينا
فإن تصفُ قلوب الناس ، تأنس نظرة الرحمن
إلى مرآتنا ، ويديم نظرتة ، فتحيينا
وإن تكدرُ قلوبُ الناس يصرف وجهه عنا
ويهجونا ويجفونا

وماذا يفعل الإنسان إن جافاه موله ؟
يضيق الكون في عينيه ، يفقد ألفة الأشياء
تصير الشمس في عينيه أذرعاً من النيران
يلقى ثقلها المشاء

على وجه السَّما والأرض ألوانا من اللهب
ويضحى البدر دائرة مهشمة رمادية
من القصدير ميةً وملقاة على ببداء
فقد جفت عيون الناس ، أضحت نقطة سوداء
وتدوى أذرعُ الأشجار ، تلقى حملها للأرض
وتدفنه كمجھضة تُكفن عارها في الطين

ويمشى القحطُ في الأسواقِ ، يجبى جزية الأنفاس
 من الأطفال والمرضى
 حقييته بلا قاع ، فلا تُملأ إذ تعطى
 ورغبته بلا رى ، فلا تسكت أن تسأل
 وخلف القحطِ ، يمشى تحت ظل البيرق المُسدل
 جنودُ القحطِ ، جيش الشرِّ والنقمة
 خلائقهم مشوهةٌ ، كأنَّ الذيلَ فوق الرأسِ
 يقود خطاهمو إبليس وهو وزيرٌ مُلكِ القحطِ
 وليس القتل والتدجيلُ والسَّرْقُ
 وليس خيانةُ الأصحاب والمَلَقُ
 وليس البطشُ والعدوانُ والخرقُ
 سوى بعض رعايا القحطِ ، جند وزيره إبليس
 تعالى الله ، قد يأنفُ أن ينظر في مرآتنا ذاته
 فيصرف وجهه عنا ،
 فكيف إذن نُصفى قلوبنا المُعتمِ
 ليستقبل وجه الله ، يستجلى جمالاته
 نُصلى ، نقرأ القرآن ،
 نقصد بيته ، ونصوم في رمضان
 نعم ،
 لكن هذى أول الخطوات نحو الله
 خطى تصنعها الأبدان

وربّى قصده للقلب
ولا يرضى بغير الحبّ
تأمل ، إن عشقتَ ألسّت تبغى أن تكون شبيه محبوبك
فهذا حبنا لله
أليس الله نور الكون !
فكن نوراً كمثّل الله
ليستجلى على مرآتنا حسنه

وحين يقف الحلاج بين يديّ جلّاديه من قضاة عصره - الذين باعوا
ضمائرهم للسلطان وأعمتهم الغواية عن رؤية الحق ومعانيته
فأصدروا حكمهم من قبل أن تبدأ المحاكمة - يهدر صوت الحلاج في
مسرحية صلاح عبد الصبور مُلوّحاً في وجه هؤلاء الذين يحاكمونه
بأنهم ليسوا قضاة ، ولذا فلن يدافع عن نفسه ضدّ اتهامه بإفساد
صعاليك العامة .

يقول الحلاج :

أنا رجلٌ من غمارِ الموالى ، فقير الأرومة والمنبّتِ
فلا حسبي ينتمى للسماءِ ، ولا رفعتنى لها
ثروتى
ولست كآلافٍ من يولدون بآلاف أيامِ هذا الوجود
لأن فقيراً بذات مساءٍ سعى نحو حضنٍ فقيرةٍ
وأطفاً فيه مرارةَ أيامه القاسيةِ
نموت كآلاف من يكبرون ، حين يقتاتون خُبزَ

الشموس
ويُسْقَوْنَ ماءَ المطرِ
وتلقا هـمو صبيةً يافعين حزاني على الطُرقاتِ
الحزينة
فتعجب كيف نمواً واستطالوا وشبت خطاهم
وهذى الحياةُ ضنينةً
تسكَّعت في طُرقاتِ الحياةِ ، دخلت سراديبها
المُوحشاتُ
حجبت بكفى لهيب الظهيرة في الفلوات
وأشعلت عيني ، دليلى ، أنيسى في الظلمات
وذوّبت عقلى ، وزيت المصابيح ، شمس النهار
على صفحات الكتب
لهثت وراء العلوم سنين ، ككلب يشم روائح صيد
فيتبعها ، ثم يحتال حتى ينال سبيلاً إليها
فيركض ، ينقض
فلم يسعد العلم قلبى ، بل زادنى حيرة واجفة
بكيت لها وارتجفت
وأحسست أنى وحيد ضئيل كقطرة طل ، كحبة
رمل
ومنكسر تعس ، خائف مرتعد
فعلمى ما قادنى قط للمعرفة

وهبنى عرفت تضاريس هذا الوجود
مدائه ، وقراه ووديانه ، وذراه
وتاريخ أملاكه الأقدمين
وآثار أملاكه المحدثين
فكيف بعرفان سر الوجود ، ومقصده ، مبتدا
أمره ، منتهاه
لكى يرفعَ الخوفَ عنى ، خوفَ المنونِ ، وخوفَ
الحياة ، وخوفَ القدرِ
لكى أطمئن .
سألت الشيوخ ، فقليل :
تقربُ إلى الله ، صلِّ ليرفعَ عنك الضلال ، صلِّ
لتسعدُ
وكنْتَ نسيْتَ الصلاة ، فصلَّيتُ لله ربَّ المنونِ ،
وربَّ الحياة ، وربَّ القدرِ
وكان هواءُ المخافةِ يصفِرُ في أعظمى ويئزُّ كريحِ
الْفَلا
وأنا ساجدٌ راکعٌ أتعبُ
فأدرکتُ أنى أعبُدُ خوفاً لا الله
كنت به مشركاً لا موحد
وكان إلهى خوفاً
وصليتُ أطمعُ في جنته

ليختالَ في مُقلَّتِي خيالَ القصورِ ذواتِ القبابِ
أسمعُ وسوسةَ الحليِّ ، همسَ حريرِ الثيابِ
وأحسستُ أني أبيعُ صلاتي إلى الله
فلو أتقنتُ صنعةَ الصلواتِ لزادَ الثمنُ
وكنْتُ به مشرِكًا لا مُوحِدُ
وكان إلهي الطمعُ
وجيرَ قلبي الطمعُ
تُرى ، قُدِّرَ الشُّركُ للكائناتِ
وإلا فكيفُ أصلي له وحده
وأُخلِي فؤادي عما عداه
لكي أنزعَ الخوفَ عن خاطري لكي أطمئن
لكي أطمئن

في هذه المونولوجات الطويلة على لسان الحلاج ، يتضح مدى
استيعاب صلاح عبد الصبور لأدقِّ أسرار التجربة الصوفية ، عند كبار
العشاق والمحبين ، من نفى للقدرة على المعرفة بواسطة العقل ، فالقلب
هو المدخل والطريق ، ورفض لفكرة أن تكون العبادة قائمة على مجرد
الخوف أو الطمع ، حتى يكون أساسها المحبة والتوجه الخالص ،
والذوبان والفناء في المعشوق ، عندئذ ينتزع الخوف من المحب وتسكنه
الطمأنينة ويتحرر من الرغائب والشهوات . ويستمر صوت « الحلاج »
يفيض بالتحدي ويبتل بالمزيد من الشجون ، ويندئ بلغة الإفضاء
ومكاشفة الأسرار :

كما يلتقى الشوق الصحارى العطاش ، بشوق
 السحاب السخي
 كذلك كان لقائي بشيخي
 أبى العاص عمرو بن أحمد ، قدس تربته ربه
 وجمّعنا الحب ، كنت أحب السؤال ، وكان يحب
 النوال
 ويعطى ، فيبتل صخر الفؤاد
 ويعطى ، فيخضر غصنى
 ويعطى ، فيزهر نطقى وظنى
 ويخلع عني ثيابى ، ويلبسنى خرقة العارفين
 يقول هو الحب ، سر النجاة ، تعشق تفز
 وتفنى بذات حبيبك ، تصبح أنت المصلّى ، وأنت
 الصلاة وأنت الديانة والربّ والمسجد
 تعشقت حتى عشقت
 تخيلت حتى رأيت
 رأيت حبيبى ، وأتحفنى بكمال الجمال ، جمال
 الكمال
 فأتحفته بكمال المحبة
 وأفانيت نفسى فيه

* * *

هذه السطور العامرة بنفحات الوجد وحرارة المعانة وفرح المعاينة والانكشاف هى دليل على امتداد خيوط التجربة الصوفية فى العشق الإلهى حتى يومنا هذا ، وكيف أن التألق فى التعبير عنها رهن بتوافر الصدق الشعورى الذى يتوهج من خلال قيم التعبير ، لتكتمل لهذه التجربة أبعادها فى الحس والتذوق وآثارها فى القلب والوجدان .

ولسوف تستمر هذه الخيوط والروافد ، مستمرة وممتدة ، فى رحلة الإنسان مع الكون ، ما بقى هذا الإنسان ، وما استمر انخلاعه وانخطافه نحو المجهول ، واحتضانه لطمأنينة الإيمان واليقين ، وتوجهه بالمحبة الكاشفة التى تنفض عنه الخوف وتملأ زوايا نفسه بالخشوع ، وتفجر هذا الشعر الأصيل النبيل ، المتوهج بعطاء الرحلة ، المثقل بمخاطر الترحال .

فمادام المحبوب هو الحق ، فإن العارف يظل دائم المشاهدة له وكلما ازداد مشاهدة زاد هياما ووجدا فالاشتياق يهيىج باللقاء ، ويظمئه الوصال ، وتشعله المعاينة ، وكلما اجتمع العاشق بمحبوبه أدرك أنه لا يشبع من مشاهدته ولا يروى ظمأه منه ، فكلما نظر إليه زاد وجداً به وشوقاً مع حضوره معه .

ومن عجب أنى أحنُّ إليهمو
وأسأل شوقاً عنهمو وهمو معى
وتبكيهمو عيني وهم فى سوادها
وتشتاقهم نفسى وهم بين أضلعي

تعاضمني ذنبي

للإمام الشافعي

« تعاضمني ذنبي ، فلما قرنته
بعفوك ربِّي ، كان عفوك أعظماً
ومازلت ذا عفو عن الذنب ، لم تزل
تجود وتعفو منّة وتكرما »

« هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس ، يتصل نسبه
بنسب الرسول الكريم ، ولد بغزة ، ثم حمل إلى مكة وهو ابن سنتين ،
«وَحُبِّبَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ مِنْذُ صَبَاهُ فَجَالَسَ الْعُلَمَاءَ وَأَخَذَ عَنْهُمْ ، ثُمَّ وَقَدَّ عَلَى
الإمام مالك في المدينة وحفظ الموطأ ، ثم ارتحل إلى اليمن فالعراق ينشر
علم الحديث وفقه السنة ويستخرج الأحكام ثم جاء إلى مصر سنة
مائة وتسع وتسعين هجرية ، وصنّف فيها مذهبه وألف في علم
الأصول ، واعترف له الناس بالإمامة وأصبح أحد الأئمة الأربعة
المجتهدين . وتوفي بمصر سنة مائتين وأربع هجرية عن أربع وخمسين
سنة » .

يقول الإمام الشافعي :

إِلَيْكَ إِلَهَ الْخَلْقِ أَرْفَعُ رَغْبَتِي
وإن كنتُ يا ذا المن والجود مجرماً
ولما قسا قلبي وضّقتُ مذهبِي
جعلتُ الرّجا مني لعفوكُ سلماً
تعاظمني ذنبي فلما قرنتهُ
بعفوكُ ربّي كان عفوكُ أعظماً
ومازلتُ ذا عفو عن الذنب لم تزل
تجود وتعفو منّةً وتكرماً
ولولاك ما يقوى إبليس عابداً
وكيف وقد أغوى صفيكُ آدماء
فإن تعفُ عني تعفُ عن متمرّد
ظلوم غشوم لا يزایل مأتماً
وإن تنتقم مني فأسئتُ بآيس
ولو أدخلتُ نفسي بجُرمي جهنماً
فجرمي عظيمٌ من قديمٍ وحادثٍ
وعفوكُ يأتِي العبدَ أعلَى وأجسماً
تعاظمني ذنبي ، فأقبلت خاشعاً
ولولا الرضا ما كنت ياربّ منعماً

حوالى فضل الله من كل جانب
ونور من الرحمن يفتش السما
وفي القلب إشراق المحب بوصله
إذا قارب البشرى وجاز إلى الحمى
حوالى إيناس من الله وحده
يطالعنى فى ظلمة القلب أنجما
أصون ودادى أن يدنس الهوى
وأحفظ عهد الحب أن يتلما
ففى يقظتى شوق وفى غفوتى منى
تلاحق خطوى نشوة وترنما
ومن يعتصم بالله يسلم من الورى
ومن يرجئه هيهات أن يتندما
إليك إله الخلق ، أرفع رغبتى
وإن كنت يا ذا المن والوجود مجرما

هوانا حجازى لأبى حمزة الخراسانى

أراك وبى من هييتى لك وحشة
فَتُونَسْنى بِاللَطْفِ مِنْكَ وَبِالْعَطْفِ
وَتُحِيى مُحِبَا أَنْتِ فِي الْحَبِّ حَتْفَه
وَمِنْ عَجَبِ كَوْنِ الْحَيَاةِ مَعَ الْحَتْفِ

« هو أبو حمزة الخراسانى من كبار أعلام القرن الثالث الهجرى ،
أقام بنيسابور وصاحب الجنيد والخرّاز وأبا تراب ، وذاعت له شهرة
واسعة بفضل علمه وورعه وتقاه ، توفى سنة مائتين وتسعين هجرية ،
وله قصائد تفيض بصدق العاطفة الدينية وسُمِّىَ الحب الإلهى ، من
بينها هذه المقطوعة التى أنشدها فى معنى الشهود والرضا بالحبيب » .

يقول أبو حمزة الخراساني :

أهَابُكَ أَنْ أَبْدَى إِلَيْكَ الَّذِي أُخْفَى
وَسِرِّي يَبْدَى مَا يَقُولُ لَهُ طَرُفِي
نَهَانِي حَيَاثِي مِنْكَ أَنْ أَكْتُمُ الْهَوَى
وَأُغْنِيَّتَنِي بِالْفَهْمِ مِنْكَ عَنِ الْكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ فِي أَمْرِي فَأَبْدَيْتَ شَاهِدِي
إِلَى غَائِبِي وَاللُّطْفُ يَدْرُكُ بِاللُّطْفِ
تَرَاءَيْتَ لِي بِالْغَيْبِ حَتَّى كَأَنَّمَا
تُبَشِّرُنِي بِالْغَيْبِ أَنَّكَ فِي الْكَفِّ
أَرَاكَ وَبِي مِنْ هَيْئَتِي لَكَ وَحْشَةٌ
فَتَوَسَّنِي بِاللُّطْفِ مِنْكَ وَبِالْعَطْفِ
وَتُحْيِي مُحِبًّا أَنْتَ فِي الْحَبِّ حَتْفَهُ
وَمَنْ عَجِبَ كَوْنُ الْحَيَاةِ مَعَ الْحَتْفِ
فِيَا شَوْقُ رَفَقًا بِالَّذِي أَنْتَ مُشْعَلٌ
فَلَوْعَتُكَ الْحَرَّى تَجَلُّ عَنِ الْوَصْفِ
وَيَا قَلْبُ هَذَا مَوْعِدٌ لِمَتِّمْ
تَفْيِضُ دُمُوعِ الْعَيْنِ مِنْهُ ، وَلَا تَكْفِي
وَيَا نَفْسُ هَبْتَ مِنْ رِيَاضِ أَحِبَّتِي
نَسَائِمُ جَادَتْ حُفْلًا مِنْ شَذَا الْعَرَفِ

تُراوحنّا رِيًّا الصَّبَا في هُبوبها
فأنشَقْ منها ما يُقَبِّلُه طرفي
هوانا حجازيٌّ ونجدٌ هي المنى
وإصباحنا المأمول يَخْفى ولا يُخْفى
مُعْنَى وما بين الأضالع سورةٌ
غواثلها ترتج في هزة الرجفِ
وماضٍ لما أَسْعَى إليه ، كأنني
أسيرٌ على ظِلِّي وأُسْعَى إلى حتْفِي
فلو أبصرتني أعينٌ مستهامَةٌ
لفاضت مآقيها دمًا ساخنَ الوكْفِ
وكيف أهابُ الزَّحْفَ أو أرهبُ السُّرى
إذا كان من أهواه مولاى في الزَّحْفِ
أمولاى صبرنى على ما أصابنى
فأنت الذى تكفى وأنت الذى تُعْفى
ولا تجعلنْ حبلَ العذابِ مُخلدًا
ولا كالذى عذَّبَتْ قارونَ بالخسفِ
وها أنا أخفى الدمعَ والسرَّ بينَ
بوجهي، وتأبى المقلتانِ سوى الذرفِ

يُبَيِّن لِسَانِي عَنْ فَوَادِي وَرَبِّمَا
أَسْرَ لِسَانِي مَا يَبُوحُ بِهِ طَرْفِي (١)

(١) هذا البيت والأبيات الثلاثة السابقة له تُروى - مع اختلاف في السياق - للشاعر العباس بن
الاحتف .

غريب الدار

للبرعى

« إلهى أقلنى عثرتى ، وتولنى
بعفو ، فإن النائبات لها عُنْفُ
خلعتُ عذارى ثم جئتُك عامدا
بعذرى ، فإن لم تعف عني ، فمن يعفو »

« عاش الإمام عبد الرحيم البرعى فى القرن الخامس الهجرى ،
ويقال إنه أول من توله فى حب الرسول الكريم ، وشعره يدل على صدق
العاطفة فى الحب ، مع سهولة ورقة فى التعبير .
والبرعى يمنى الأصل ، حجّ عدة مرات ، وتوفى فى الطريق من مكة
إلى المدينة ودفن بوادى البرعى - وله ديوان مجموع مطبوع يضم
أشعاره فى الحب الإلهى والمدائح النبوية » .

يقول البرعى :

عسى من خفيّ اللطف سبحانه لطفُ
 بعطفة برٍّ ، فالكريم له عطفُ
 عسى من لطيف الصنع نظرة رحمة
 إلى من جفاه الأهل والصحب والإلفُ
 عسى فرج يأتى به الله عاجلاً
 يسرُّ به الملهوف إذ غمه اللهفُ
 عسى لغريب الدار تدبير راقية
 وبرٍّ من البارئ إذا العيش لم يصفُ
 عسى نفحة فردية صمدية
 بها تنقضى الحاجات والشمل يلتفُ
 فإنى والشكوى إلى الله ، كالذى
 رمى نفسه فى لجة موجها يطفو
 فمن محن الأيام قلبى معذبُ
 ألم بروحى قبل حتفِ الفناء حتفُ
 وإنى لأرضى ما قضى الله لى ولو
 عبذت على حرف لأزوى بى الحرفُ
 ولم أبئن حسن الظن فى سيدى على
 شفا جرف هار فينهار بى الجرفُ

ولكن دعوت الله يكشفُ كربتى
 فما كربية إلا ومنه لها كشفُ
 فكم بُسطت كفّ بسوء تريدنى
 فقال لها الكافى ألا غلب الكفُ
 وكم هم صرفِ الدهر يصرفُ نابه
 على ، فجاء الغوثُ وانصرف الصرفُ
 ولم أعتصمُ بالله إلا ومد لى
 من البرِّ ظلا فى رضاه له وكفُ
 وإنسى لمستغن بفقرى وفاقتى
 إليه ، ومُستقو وإن كان بى ضعفُ
 وفى الغيب للعبد الضعيف لطائفُ
 بها جفت الأقلام وانطوت الصحفُ
 فكم راح روح الله فى خلقه ، وكم
 غدا قبل أن يرتد للناظر الطرفُ
 بقدرة من شدّ العرى وبنى السما
 طرائق فوق الأرض فهى لها سقفُ
 ومن نصب الكرسي والعرش ، واستوى
 على العرش والأملاك من حوله حفوا
 ومن بسط الأرضين فهى بلطفه
 لحى بنى الدنيا وميتهم ظرفُ

وألقى الجبال الشَّمَّ فيها رواسياً
 فليس لها من قبل موعدها نَسْفُ
 وألبسها من سندس النَّبْتِ بهجَةً
 من القطر ما صِنْفُ يشابهه صِنْفُ
 وسخر من نشر السحاب لواقحاً
 إذا انتشرت درّت سحائبها الوطفُ
 وأنشأ من ألفافها كلَّ جنة
 بها الأبُّ والريحانُ والحَبُّ والعصفُ
 ويعلم مسرى كلِّ سارٍ وسارٍ
 وما أعلنوه من خطايا وما أخفوا
 ويدري دبيب النمل في الليل إن سَعَتْ
 وإن وقفت ما أمكن السعى والوقفُ
 ووزن جبال كم مثاقيل ذرةٍ
 وكيّل بحار لا يغيّضها نزفُ
 وكم في غريب الملك والمكوت من
 عجائب لا يُحصى لأيسرها وصفُ
 فسبحانه إن همَّ وهمُّ لذاته
 بكفٍ وتكليفٍ يُلجِّمُهُ الكفُ
 ولم تُحِط الستُّ الجهاتُ بذاته
 فأين يكون الأيْنُ والقَبْلُ والخلفُ

إلهى أقلنى عثرتى وتولنى
 بعفو فإنَّ النّائباتِ لها عَفْوُ
 خلعتُ عذارى ثم جئتُك عامداً
 بعذرى ، فإن لم تَعَفْ عني فمن يعفو
 وأنت غياثي عند كلِّ ملامةٍ
 وكهفي إذا لم لي يبق بين الورى كهف
 فكم صاحب رافقته ليكون لي
 رفيقاً ، فأضحى وهو بادی الجفا خلفُ
 وما شئت من قوم أعدُّ صديقهم
 إذا استنصروا زالوا وإن وزنوا خفّوا
 طباع ذئاب في ثياب جميلة
 بصائرهم عمى ، قلوبهمو غُلفُ
 تلوحُ عليهم للنفاق دلائلُ
 وبالحك يبدو الزيف والذهب الصّرفُ
 فحلُّ سیدی ما عشت بينى وبينهم
 بحولك حتى يخضع الفرد والألفُ
 لأنك معروفي ومنك عوارفي
 إذا استنكر المعروف وانقطع العرفُ
 وأثبت بنور العلم والحلم منك لي
 سعادة حظ ما المثبتها حذفُ

وأَيِّد بحرف الكاف والنون حُجَّتِي
ليسبق لي من كلِّ صالحةٍ حرفُ
وأَكْرُم لأجل من يلينى وأعطينا
من النار أَمْنًا يوم كُُلُّ له ضعفُ
وصلِّ على روح الحبيب محمدٍ
صلاةً علاها النور وانتشر العرفُ

نار ليلي

لشهرزورى

نارنا هذه ، تضىء لمن يسـ
رى بليلى ، لكنّها لا تنيل
هذه حالنا ، وما وصل العـ
م إلينا ، وكلُّ حالٍ تحوّل

« هو عبد الله بن القاسم الشهرزورى - نسبه إلى مدينة شهرزور
في كردستان ، شاعر عالم وأديب فقيه ومحدث بارع حكيم . توفى سنة
خمسمائة وإحدى عشرة هجرية ، وهو قليل الحظ من الشهرة بين
الأدباء والمتأديبين وإن كان عظيم القدر بين عشاق المتصوفة في زمانه .
وهو في قصيدته هذه ينسج على منوال غير مألوف عندما يستهلها
بوصف ابتداء الرحلة ، رحلة البحث عن الحقيقة المطلقة ، عن
معشوقته .. ليلاه ، ثم يصف أشواق الرحلة وما لاقاه من معاناة
ومكابدة ، وصولاً إلى النار التى كان يظنها ستنيل ، حيث الظفر
بالوصال ولقاء المحبوب » .

يقول الشهرزورى :

لمعت نارهم وقد عسعس الليث
 ل ، وملّ الحادى ، وجار الدليل
 فتأملتُها وفكرى من البيت
 من عليل ولحظ عيني كليل
 وفؤادى ذاك الفؤاد المعنى
 وغرامى ذاك الغرام الدخيل
 ثم قبلتها وقلت لصحبي
 هذه النار ليل فميلوا
 فرموا نحوها لحاظاً صحيحاً
 ت ، فعادت خواسئاً وهى حول
 ثم مالوا إلى الملام وقالوا
 خلّب ما رأيت أم تخيّل
 فتجنبتهم وملت إليها
 والهوى مركبى وشوقى الزميل
 ومعى صاحب أتى يقتفى الآ
 ثار والحب شأنه التطفيل
 فدنوننا من الطلول ، فحالت
 زفرات من دونها وعويل
 قلت : من بالديار ؟ قالت : جريح
 وأسير مكبل ، وقتيل

مالذى جئْتُ تبتغى ؟ قلت : ضيفُ
 جاء يبغي القرى ، فأين النزولُ
 فأشارتُ بالرحبِ دونك فاعقرُ
 ها فما عندنا لضيفٍ رحيلُ
 من أتاناًلقى عصا السيرِ عنه
 قلت : من لى بذا ؟ وكيف السبيلُ
 فحططنا إلى منازل قوم
 صرعتهم قبلَ المذاقِ الشَّمولُ
 ومن القوم من يشيرُ إلى وجـ
 د تبقى عليه منه القليلُ
 قلت : أهل الهوى سلامٌ عليكم
 لى فؤادٌ عنكم بكم مشغولُ
 لم يزل حافز من الشوق يحدو
 بى إليكم والحادثات تحولُ
 جئْتُ كى أصطلى ، فهل لى إلى نا
 ركموهذه ، الغداة سبيلُ
 فأجابت شواهد الحال عنهم
 كل حدٍّ من دونها مفلولُ
 نارنا هذه ، تضىء لمن يسـ
 رى بليلى ، لكنها لا تُنيلُ
 هذه حالنا ، وما وصل العـ
 سم إلينا ، وكلُّ حال تحولُ

قته دلالاً

لابن الفارض

كلُّ مَنْ في حماكَ يهواكَ ، لكن
أنا وحدي بكل من في حماكا
يُحشر العاشقون تحت لوائي
وجميع الملاحِ تحْتَ لَواكا

« هو إمام المحبين وسُلطان العاشقين أبو حفص عمر بن الفارض ولد في القاهرة سنة خمس مائة وست وسبعين هجرية لأسرة شامية الأصل تنتسب إلى مدينة حماة ، ونشأ نشأة دينية في كنف والده ابن الفارض الذي كان أحد كبار علماء الدين في زمانه ، وأتيح له أن يدرس الفقه والحديث وأن يتردّد على مجالس العلم ، وأن يدرس طريق الصوفية متنقلاً في سياحته الروحية بين وادي المستضعفين في جبل المقطم وأودية مكة التي قضى بها خمسة عشر عاماً عاد بعدها إلى مصر مفعماً بالأشواق والوجد والهيام حيث كانت وفاته سنة ستمائة واثنين وثلاثين هجرية .

وقد اشتهر شعره لامتلائه بالمعاني الصوفية الرمزية ، ولقوة ما تميز به من أداء وتعبير ، وعاطفة حارة متوهجة ، وخيال مطلق . »

يقول ابن الفارض :

تَه دَلَالاً فَأَنْتَ أَهْلٌ لِّذَاكَ
وَتَحَكَّمْ فَالْحَسَنُ قَدْ أَعْطَاكَ
وَلَكَ الْأَمْرُ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ
فَعَلَى الْجَمَالِ قَدْ وَلَّاكَ
وَتَلَا فِي إِنْ كَانَ فِيهِ اثْتَلَا فِي
بِكَ ، عَجَّلْ بِهِ جُعِلَتْ فِدَاكَ
وَبِمَا شِئْتَ فِي هَوَاكَ اخْتَبَرْنِي
فَاخْتَبَارِي مَا كَانَ فِيهِ رِضَاكَ
فَعَلَى كُلِّ حَالَةٍ أَنْتَ مِنِّْي
بِي أُولَى ، إِذْ لَمْ أَكُنْ لَوْلَاكَ
وَكَفَانِي عِزًّا بِحُبِّكَ ذُلِّي
وَحُضُوعِي ، وَلَسْتُ مِنْ أَكْفَاكَ
وَإِذَا مَا إِلَيْكَ بِالْوَصْلِ عَزَّتْ
نَسَبَتِي عِزَّةً وَصَحَّ وَلَاكَ
فَاتِهَامِي بِالْحُبِّ حُسْبِي ، وَإِنِّي
بَيْنَ قَوْمِي أُعِدُّ مِنْ قَتْلَاكَ
لَكَ فِي الْحَيِّ هَالِكٌ بِكَ حَيٌّ
فِي سَبِيلِ الْهَوَى اسْتَلْذُ الْهَلَاكَ
عَبْدُ رَقٍّ مَارِقٌ يَوْمًا لِعَتَقِ
لَوْ تَخَلَّيْتُ عَنْهُ مَا خَلَاكَ

بجمالِ حُبَّتْهُ ، بِجِلَالِ
 هَامَ واستعذبَ العذابَ هناكا
 وإذا ما أَمُنُ الرجاء منه أدنا
 كَ ، فَعَنَهُ خَوْفُ الحِجَى أَقْصَاكا
 فبإقدامِ رغبةٍ حينَ يغشا
 كَ ، بِإِحْجَامِ رَهْبَةٍ يَخْشَاكا
 ذابَ قلبي فَأَذِنُ لَهُ يَتَمَنَّا
 كَ ، وفيه بقيةٌ لِرَجَاكا
 أومر الغمُّضُ أن يَمُرَّ بِجَفْنِي
 فكأنِّي به مُطِيعًا عَصَاكا
 فعسى في المنام يعرضُ لي الوهـ
 مُ ، فيُوحِي سِرًّا إلى سُراكا
 وإذا لم تُتَعَشَّ بِروحِ التَمَنَّى
 رمقى ، واقتضى فنائي بَقَاكا
 وحمت سُنَّةَ الهوى سُنَّةَ الغَمِّ
 ض جفوني ، وحرمت لُقْيَاكا
 أَبْقِ لي مَقْلَةً لَعْلَى يَوْمًا
 قبل موتي أرى بها من رَاكا
 أين مني ما رمت هِيَهَاتَ ، بل أيـ
 نَ لعيني بالجفنِ لَثْمُ ثراكا

فَبَشِيرِي لَوْ جَاءَ مِنْكَ بَعْطِفٌ
 وَوَجُودِي فِي قَبْضَتِي ، قُلْتُ هَاكَ
 قَدْ كَفَى مَا أَرَى دَمًا مِنْ جُفُونِ
 بِكَ قَرَحِي ، فَهَلْ جَرَى مَا كَفَاكَ
 فَأَجِرْ مِنْ قِلَافِكَ فَيْكَ مُعْنَى
 قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ الْهَوَى يَهْوَاكَ
 هَبْكَ أَنْ السَّلَاحِي نَهَاةً بِجَهْلٍ
 عَنْكَ قُلْ لِي عَنْ وَصْلِهِ مَنْ نَهَاكَ
 وَإِلَى عِشْقِكَ الْجَمَالُ دَعَاةُ
 فِإِلَى هَجْرِهِ تُرَى مِنْ دَعَاكَ
 أَتُرَى مَنْ أَفْتَاكَ بِالْصَدِّ عَنِّي
 وَلَغِيرِي بِالْوَدِّ مَنْ أَفْتَاكَ
 بَانَكَسَارِي بِذِلَّتِي بِخُضُوعِي
 بِأَفْتَقَارِي بِفَاقَتِي بِغِنَاكَ
 لَا تَكْنِي إِلَى قَوِي جَلَدِ خَا
 نَ ، فَإِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْ ضَعْفَاكَ
 كُنْتُ تَجْفُو وَكَانَ لِي بَعْضُ صَبْرٍ
 أَحْسَنَ اللَّهُ فِي اصْطِبَارِي عَزَاكَ
 كَمْ صَدُودًا عَسَاكَ تَرْحَمُ شَكْوَا
 ي ، وَلَوْ بِاسْتِمَاعِ قَوْلِي عَسَاكَ

شنع المرجفون عنك بهجرى
 وأشاعوا أنى سلوت هواكا
 ما بأحشائهم عشقت فأسلو
 عنك يوماً ، دع يهجروا ، حاشاكا
 كيف أسلو ومقلتى كلما لا
 حَ بریقُ تلفتت للقاكا
 إن تنسمت تحت ضوء لثام
 أوتنسمت الريح من أنباكا
 طبت نفساً إذ لاح صبح ثنايا
 لك لعينى ، وفاح طيب شذاكا
 كل من فى جمالك يهواك ، لكن
 أنا وحدى بكل من فى حماكا
 فيك معنى حلاك فى عين عقلى
 وبه ناظرى معنى حلاك
 فقت أهل الجمال حسناً وحسنى
 فيهم فاقة إلى مغناكا
 يحشر العاشقون تحت لوائى
 وجميع الملاح تحت لواكا
 ما ثنائى عنك الضنى فبماذا
 يا مليح الدلال عنى ثناكا

لك قَرَبٌ مِنِّي ببعْدِكَ عَنِّي
 وحنو وجدتهُ في جَفَاكَ
 علَّم الشوق مقلتي سهر اللَّيْلِ
 ل ، فصارتُ من غير نومٍ تراكَ
 حبًّا ليلَةً بها صِدْتُ أُسْرًا
 لك ، وكان السُّهادُ لي أشْرَاكَ
 نواب بدر التمام طيِّفَ مُحِيًّا
 لك لِطَرْفِي ، بيقظتي إذ حكاكَ
 فترأيت في سِوَاكَ لعينٍ
 بك قرئت وما رأيت سواكَ
 وكذلك الخليلُ قَلْبَ قَبْلِي
 طرُفه حين راقبَ الأفلاكِ
 فالدياجي لنا بك الآن غُرٌّ
 حيث أهديت لي هُدًى من ثناكَ
 ومتى غبتَ ظاهراً عن عياني
 أُلْفِيهِ نحو باطني أَلْفَاكَ
 أهل بدر ركبٌ سريئتَ بليلاً
 فيه بل سار في نهار ضياكَ
 واقتباس الأنوار من ظاهري غيِّ
 سر عجيبٍ وباطني مأواكَ

يُعْبَقُ الْمِسْكُ حَيْثَمَا ذُكِرَ اسْمِي
مِنْذِ نَادَيْتَنِي أَقْبَلُ فَاكَا
وَيَضُوعُ الْغَبِيرُ فِي كُلِّ نَادٍ
وَهُوَ ذِكْرٌ مُعَبَّرٌ عَنْ شَذَاكََا
قَالَ لِي حَسَنُ كُلِّ شَيْءٍ تَجَلَّى
بِي تَمَلَّى فَقُلْتُ قَصْدِي وَرَاكََا
لِي حَبِيبٌ أَرَاكَ فِيهِ مَعْنَى
غُرٍّ غَيْرِي وَفِيهِ مَعْنَى أَرَاكََا
إِنْ تَوَلَّى عَلَى الْنفُوسِ تَوَلَّى
أَوْ تَجَلَّى يَسْتَعْبِدُ النَّسَاكََا
فِيهِ عَوِضَتْ عَنْ هُدَايَ ضَلَالًا
وَرَشَادِي غِيًّا وَسَتْرِي انْهَتَاكََا
وَحَدَّ الْقَلْبُ حُبَّهُ فَالْتَفَاتَنِي
لَكَ شَرُّكَ وَلَا أَرَى الْإِشْرَاكََا
يَا أَخَا الْعَذْلِ فِي مَنْ الْحَسَنُ مَثَلِي
هَامٌ وَجَدًّا بِهِ عَدِمْتُ أَخَاكََا
لَوْ رَأَيْتَ الَّذِي سَبَانِي فِيهِ
مَنْ جَمَالَ وَلَنْ تَرَاهُ سَبَاكََا
وَمَتَى لَاحَ لِي اغْتَفَرْتُ سُهَادِي
وَلَعَيْنِي قُلْتُ هَذَا بِذَاكََا

مريضة الأجفان

لابن عربي

بأبى طفلةً لعوبٌ تهادى
من بناتِ الخدور بين الغوانى
طلعت في العيان شمسا ، فلما
أفلت أشرقت بأفق جنانى

هو محيى الدين بن عربى ، الحاتمى الطائى الأندلسى . ولد
بمرسية إحدى بلاد الأندلس سنة خمسمائة وستين هجرية ، وانتقل
إلى إشبيلية فى الثامنة من عمره ، فقرأ بها العلوم على مشاهير زمانه ثم
سافر إلى مصر ودمشق وبغداد ، وجاور فى مكة ، وأقام فى بلاد الروم
طلبا للعلم والسياسة ، وتوفى بالشام عن ستة وسبعين عاما ، ودفن فى
مسجد يحمل اسمه فى سفح جبل قاسيون بعد حياة حافلة جلبت عليه
الكثير من الأنصار والأعداء .

وقد ترك ابن عربى مؤلفات كثيرة أشهرها « الفتوحات المكية » الذى
يعتدُّ واحداً من أمهات كتب التصوف الإسلامية ، وديوان شعره
« ترجمان الأشواق » الذى يمتلئ بقصائد فى الغزل يرمز بها إلى المعانى
الروحية والدلالات الصوفية .

يقول ابن عربي :

مرضى من مريضة الأجنان
 علّانى بذكرها ، علّانى
 هفت الورق بالرياض وناحت
 شجّو هذا الحمام مما شجانى
 بأبى طفلة لعوب تهادى
 من بنات الخدور بين الغوانى
 طلعت فى العيان شمسًا ، فلما
 أفلت أشرق بآفق جنانى
 يا طولاً برامة دارسات
 كم رأّت من كواعب وحسان
 بأبى ثم بى غزال ربيب
 يرتعى بين أضلعى فى أمان
 ما عليه من نارها فهى نور
 هكذا النور مُمخد النيران
 يا خليل عرجا بعيانى
 لأرى رسم دارها بعيانى
 فإذا ما بلغت الدار حطا
 وبها صاحبى ، فلتبكيانى

وقفنا بى على الطلول قليلاً
 نتباكى ، بل أبك مما دهانى
 الهوى راشقى بغير سهام
 الهوى قاتلى بغير سنان
 عرفانى إذا بكيتُ لديها
 تُسعدانى على البكا تُسعدانى
 واذكرا لى حديث هند ولبنى
 وسليمى وزينب وعنان
 ثم زيدا من حاجر وزرود
 خبراً عن مراتع الغزلان
 واندبانى بشعر قيس ولىلى
 وبمى ، والمبتلى غيلان
 طال شوقى لطفلة ذات نثر
 ونظام ومنبر وبیان
 من بنات الملوك من دار فرس
 من أجل البلاد من أصبهان
 هى بنت العراق بنت إمامى
 وأنا ضدها سليل يمانى
 هل رأيتم يا سادتى أو سمعتم
 أن ضديّن قط يجتمعان

لو ترانا برامة نتعاطى
 أكوساً للهوى بغير بنان
 والهوى بيننا يسوق حديثاً
 طيباً مطرباً بغير لسان
 لرأيتكم ما يذهب العقل فيه
 يمن والعراق معتقان
 كذب الشاعر الذى قال قبل
 وبأحجار عقله قد رمانى :
 « أيها المنكح الثرى سُهَيْلاً
 عَمَرَكَ اللهُ كيف يلتقيان
 هى شامية إذا ما استهلّت
 وسُهَيْل إذا استهلّ يمانى^(١)



General Organization of the Alexandria Library (or _____
 Bibliotheca Alexandrina

(١) هذان البيتان منسوبان للشاعر عمر بن أبى ربيعة .

رَبَّة السَّتر

للإمام الصرصري

سيري فأنوار أقمار المحامل إن
حار الأدلة في البيداء تهديك
فَتَحَتِ بِالرَّشْدِ عَن عَيْنِي بَعْدَ عَمَى
وَأَسْمَعَ السِّرَّ مِنْ قَلْبِي مَنَادِيكَ

« هو الإمام العالم جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف
الصرصري العراقي ، كان ضريراً ، ولكنه كان تقياً ورعاً وأديباً بارعاً
وله ديوان شعري كبير أكثره مدائح في الرسول الكريم ، مات على أيدي
النتار - عند سقوط بغداد - سنة ستمائة وست وخمسين هجرية » .

يقول الإمام الصرصرى :

ياربّة السّتر لا انجابت غواديق
 عن جوّ مغناك أو يخضر واديك
 وأنت يا عذبات البان ، لا برحت
 تهيجُ أشواقنا ألحانُ شاديك
 وماس من كلّ غصن منك من طرب
 عطفاً وتهت دلالاً في تهاديك
 ويامياه الحمى لازلت طيبة
 يروى بشرب الزلال العذب صاديك
 ويا نسيم صبا نجد لقد عرفت
 روحى بمسراك وهناً عرف مهديك
 وياليا لينا لله عيش هوى
 مع البدور تقضى في دأديك
 ويا فوارط أيامى بخيف منى
 لو كان يُفدى زمان كنت أفديك
 ويا رسائل وجد لا أبوح بها
 إلى الأحبة عندي من يؤدّيك
 أخفيك عن عدلى صوناً وتكرمة
 بل المدامع والأنفاس تُبديك

ويا ركب الحجاز القُودَ ، لانقبتُ
 من السرى أبداً أخفافُ أيديكِ
 ولا عدلتِ عن النهجِ القويمِ ، ولا
 مالتِ إلى غيرِ أحبابي هواديكِ
 ونلتِ ما شئتِ من وردٍ ومن كلالٍ
 ولا نبا السمعُ عن تغريدِ حاديكِ
 كمُ ذا التَّمادى، ذرى التَّعليلِ وابتدرى
 إلى الحمى ، فَعَنائى فى تماديكِ
 سبرى فأنوار أقمار المحامل إن
 حار الأدلةُ فى البيداء تهديكِ
 ويا قبابَ حمى سَلَعِ حويّت على
 رقى بما أسلفت عندى أياديكِ
 فَتَحْتُ بالرشدِ عن عينيَّ بعد عمى
 وأسمعَ السر من قلبى مُناديكِ
 حقُّ على أوالى من به اعتلقتُ
 أسبابه وأُعادى من يُعاديكِ
 إنى وإن تكُ أضحت عنك نازحةً
 دارى لأرعى بظَهْرِ الغيبِ واديكِ
 لازال سُكانك القُطَّانُ فى دعةٍ
 وفان رائحك السَّارى وغاديكِ

وَأَنْتَ لَا تَجْزَعِي يَا نَفْسُ مِنْ بَدْعِ
مُضْلِيَةٍ وَضِيَاءِ اللَّهِ هَادِيكِ
أَجَارِكَ اللَّهُ لَوْلَا دَرْعُ سُنَّتِهِ
لَكَانَ سَهْمُ الْهَوَى الْفَتَّاكَ يُرْدِيكِ

وارحمنا للعاشقين

للسهروردي

« لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى
كتمانهم ، فنما الغرامُ ، فباحوا
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها
لما دروا أن السماح ربــــاحٌ »

« هو شهاب الدين عمر السهروردي ، ولد في سهرورد وقرأ كتب الدين والحكمة وأقام في مراغة وبغداد وحلب ، حيث كان مقتله بأمر السلطان صلاح الدين بعد أن نسب البعض إليه فساد المعتقد ، ولتوهم صلاح الدين أن السهروردي يفتن ابنه بالكفر والخروج على الدين - وكان مقتله بقلعة حلب سنة ستمائة وخمس وستين هجرية - مع أنه كان من كبار المتصوفة في زمانه ومن أفقه علماء عصره بأمور الدين والفلسفة والمنطق والحكمة ، ويسمى مذهبه الذي عرف به «حكمة الإشراق» .

ويروون أنه قال وهو يجود بأنفاسه الأخيرة :

قل لأصحابي رأوني ميتا
فبكُونِي إِذْ رَأُونِي حَزَنًا
لَا تَظُنُونِي بِأَنِّي مَيِّتٌ
لَيْسَ ذَا الْمَيِّتِ وَاللَّهُ أَنَا
أَنَا عَصْفُورٌ وَهَذَا قَفْصِي
طَرْتُ عَنْهُ فَتَحَلَّى رَهْنًا
فَاخْلَعُوا الْأَنْفُسَ عَنْ أَجْسَادِهَا
فَتَرَوْنَ الْحَقَّ حَقًّا بَيْنَنَا
لَا تَرَعَكُمُ سَكْرَةُ الْمَوْتِ فَمَا
هِيَ إِلَّا بِأَنْتَقَالَ مِنْ هُنَا

يقول السهروردي :

أبـدًا تحن إليكم الأرواحُ
 ووصالكم رِيحَانُهَا والـرَّاحُ
 وقلوبُ أهـلٍ ودا دكم تشـتاقكم
 وإلى بهاء جمالكم تـرتـاحُ (١)
 وارحمتا للعاشقين تحمّلوا
 ثقل المحبة والهوى فضأح
 أهل الهوى قسـمان : قسـم منهمو
 كتموا ، وقسـمٌ بالمحبة باحوا
 فالبائحون بسرهم شربوا الهوى
 صِرْفًا فهزهموا الغرام فباحوا
 والكاتمون لسرهم شربوا الهوى
 ممزوجةً فحمتهمو الأقداحُ
 بالسر إن باخوا تبأح دماؤهم
 وكذا دماء البائحين تُبأح
 وإذا همو كتموا تحدّث عنهمو
 عند الوشاة المدمعُ السُّفأح

(١) في رواية أخرى للبيت : وإلى لذيد لقائكم تـرتـاح .

وبدت شواهدُ السَّقامِ عليهمو
 فيها لمشكلِ أمرهم إيضاحُ
 خُفض الجَنَاحِ لكم ، وليس عليكمو
 للصبِّ في خُفضِ الجَنَاحِ جُنَاحُ
 فإلى لقاكم نفسهُ مرتاحةُ
 وإلى رضاكم طرفهُ طماحُ
 عودوا لنور الوصل من غَسقِ الدُّجى
 فالهجر ليلٌ والوصل صَبَاحُ
 صافاهمو فصفوا له ، فقلوبهم
 في نورها المشكاةُ والمصباحُ
 وتمتعوا فالوقت طاب بقربكم
 راق الشراب وراقبت الأقداحُ
 يا صاح ليس على المحب ملامةُ
 إن لاح في أفق الصبَاحِ صَبَاحُ
 لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى
 كتمانهم ، فنما الغرامُ ، فباحوا
 سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها
 لما دروا أن السَّمَاحَ ربُّـسَاحُ
 ودعاهمو داعى الحقائق دعوةُ
 فغدوا بها مستأنسين وراحوا

ركبوا على سفنُ الوفا ، ودموعهم
بحرٌ ، وشدة شوقهم ملاحُ
والله ما طلبوا الوقوف ببابه
حتى دعوا ، وأتاهم المفتاحُ
لا يطربون لغير ذكر حبيبهم
أبدًا ، فكلُ زمانهم أفراحُ
حضرُوا وقد غابت شواهدُ ذاتهم
فتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أفناهم عنهم وقد كُشفت لهم
حُجب البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم
إنَّ التشبُّه بالكرامِ فلاحُ

ويضيف الصوفية إلى قصيدة السهروردي أبياتاً أخرى كثيرة ،
من بينها مقطوعةٌ نظمت على غرار القصيدة الأصلية ، وحملت طابعها
في التعبير وطريققتها في بناء الصور الشعرية والدوران حول قاموسها
المختار من الكلمات والإشارات :

أيامنا بلقائكم أفراحُ
وجميع أيام الملاحِ ملاحُ
قل للمحب إذا تهتكَّ في الهوى
: إن التهتكَّ في الغرامِ مباحُ

واخْلَعْ عِذَارَكَ لَا تُبَالِ بِعَاذِلٍ
 واطربْ وَغَنِّ فَمَا عَلَيْكَ جُنَاحُ
 أَهْلُ الْمَحَبَّةِ حِينَ طَابَ شَرَابُهُمْ
 بَاعُوا النُّفُوسَ لِحُبِّهِمْ وَارْتَا حُوا
 شَرَبُوا كُؤُوسَ الْحُبِّ فِي حَانَ الصِّفَا
 فَتَمَايَلَتْ سَكْرًا بِهَا الْأَرْوَاحُ
 بِالْانْكَسَارِ تَحَمَّلُوا فِي حَبَّةٍ
 فَبَدَأَ عَلَيْهِمْ مِنْ رِضَاةٍ سَمَاحُ
 خَلَعَ الْحَبِيبُ عَلَيْهِمُ خَلَعَ الرِّضَا
 وَأَنَالَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ الْفَتَاحُ
 مَلَأَ الْحَبِيبُ قُلُوبَهُمْ مِنْ نُورِهِ
 فَشَذَاهُمُ مِنْ عَطَرِهِ فَوَاحُ
 تَحْيَى الْحَبِيبُ بِذِكْرِهِمْ وَبِنُورِهِمْ
 وَتَزُولُ عِنْدَ لِقَائِهِمُ الْأَتْرَاحُ
 كُلُّ الْقُلُوبِ لَهُمْ تَحْنٌ تَشْوَقًا
 وَتُحِبُّهُمْ ، وَبِحُبِّهِمْ تَرْتَا حُ
 فَتَشْبَهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ
 إِنْ التَّشْبَهُ بِالْكَرَامِ فَالْإِصْلَاحُ

إلهى يا سميع

لأحمد البدوى

« إلهى ثوب جسمى دنستهُ
ذنوبٌ حملُها أبداً ثقیلُ
إلهى جدد بعفوك لى فإنى
على الأبواب منكسر ذلیلُ »

« هو أبو العباس أحمد البدوى القرشى ، كان مولده بمدينة فاس بالمغرب ، هاجر مع والده وأهله إلى مكة حيث تعلم القرآن والعلوم الشرعية ، ثم حببت إليه الخلوة والوحدة فاعتزل الناس وظهرت عليه دلائل البركة والولاية ، ثم هاجر إلى العراق حيث لقي من شيوخها وعلمائها الترحيب ، ثم جاء إلى مصر في عصر الظاهر بيبرس الذى استقبله أروع استقبال بعد أن طبقت شهرته الآفاق لعلمه وصلاحه وتقواه ونزل في مدينة طنطا حيث كانت وفاته سنة ستمائة وخمس وسبعين هجرية زاهداً متعففاً ورعاً ، وفقياً من فقهاء المذهب الشافعى وأعلامه » .

يقول أحمد البدوي :

إلهي أنست للإحسان أهلاً
ومنك الجود والفضل الجزيلُ
إلهي بات قلبي في هموم
وحالي لا يُسرُّ به خليلُ
إلهي تب وجُد وارحم عبيداً
من الأوزار مدمعه يسيلُ
إلهي ثوب جسمي دنسته
ذنوبٌ حملها أبداً ثقیلُ
إلهي جُد بعفوك لي فإني
على الأبواب منكسرٌ ذليلُ
إلهي حُفني باللفف يا من
له الغفرانُ والفيضُ الجزيلُ
إلهي خانني جلدِي وصبري
وجاء الشيبُ واقترب الرحيلُ
إلهي داوني بدواء عفو
به يشفي فؤادي والغليلُ
إلهي ذاب قلبي من ذنوبي
ومن فعلِ القبيح أنا القتيلُ

إلهى رَدَّنِي بِرَدَاءِ أَنْسَى
 وَأَلْبَسَنِي الْمَهَابَةَ يَا جَلِيلُ
 إلهى زَحْزَحِ الْأَسْوَءَ عَنِّي
 وَكُنْ لِي نَاصِرًا نَعْمَ الْكَفِيلُ
 إلهى سِيدِي ، سَنَدِي وَجَاهِي
 فَمَالِي غَيْرَ عَفْوِكَ لِي مَقِيلُ
 إلهى شَتَّتَتْ جَيْشَ اصْطِبَارِي
 هَمُومٌ شَرَحُّهَا أَبَدًا يَطْوُلُ
 إلهى صَرْتُ مَنْ وَجَدِي أَنْادِي
 أَنَا الْعَاصِي الْمُسِيءُ ، أَنَا الذَّلِيلُ
 إلهى ضَاعَ عَمْرِي فِي غُرُورِ
 وَفِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ يَطْوُلُ
 إلهى طَالَمَا أَنْعَمْتَ مِنَّا
 بِجُودٍ مِنْكَ فَضْلًا يَسْتَطِيلُ
 إلهى ظَاهِرًا أَدْعُوكَ رَبِّي
 كَذَلِكَ بَاطِنًا أَنْتَ الْجَلِيلُ
 إلهى عَافَنِي مِنْ كُلِّ دَاءٍ
 بِجَاهِ مُحَمَّدٍ نَعْمَ الْخَالِيلُ
 إلهى غَافِرِ الزَّلَّاتِ يَا مَنْ
 تَعَالَى ، مَالَهُ أَبَدًا مَثِيلُ

إلهى فاز من ناداك ربى
 أتاه الخير حقاً والقبول
 إلهى قلت ادعونى أجبكُم
 فهناك العبدُ يدعوا يا وكيلُ
 إلهى كيف حالى يوم حشر
 إذا ما ضاق بالعاصى مقيلاً
 إلهى لا إله سواك ربى
 تعالى ، لا تُمثلُهُ العقولُ
 إلهى مسنى ضرراً فاضحي
 به جسمى يُباليه النحول
 إلهى نجتى من كل كرب
 ويسر لى أمورى يا كفيلاً
 إلهى هذه الأوقات تمضى
 بأعمار لنا ، وبها تزولُ
 إلهى والنى خيراً ، وأحسنُ
 ختامى عندما يأتى الرسولُ
 إلهى يا سميعُ أجبْ دعائى
 بظه من تسير له الحمُولُ
 فصلٌ عليه ربى كل وقت
 صلاة لا تحول ولا تزولُ
 وآلِ والصحاب ذوى المعالى
 وفى طى الكلام هُموا الفحولُ

سقانى محبوبى

لإبراهيم الدسوقي

« شهدتُ وشاهدُنَا وطابت نفوسُنَا
وقد لَذُّ لى ذُلُّى إِلَيْهِ وخشيتى
أَحْنُ على ذَلِّ وأهوى على هدى
وأسرى على علمٍ لأنوارِ طُلُعةٍ »

« هو إبراهيم بن أبى المجد بن قريش زين العابدين ، ينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه . ولد سنة ستمائة وثلاث هجرية ، وتفقه على مذهب الإمام الشافعى ثم اقتفى آثار السادة الصوفية وصار من أقطابهم ، ومازالت طريقه عامرة بالصالحين يقتفون آثاره فى مجاهدة النفس وصدق التودد إلى الله وذكره وحسن عبادته ، توفى سنة ستمائة وست وسبعين هجرية عن ثلاثة وأربعين عاما ومسجده بمدينة دسوق عامر بزواره حتى اليوم » .

يقول إبراهيم الدسوقي :

سقاني محبوبى بكأسِ المحبة
فتهت عن العشاق سكرًا بخلوتي
ولاح لنا نور الجلالة لوأضا
لصم الجبال الراسيات لدكت
وكنتم أنا الساقى لمن كان حاضرا
أطوف عليهم كربة بعد كربة
ونادمنى سرا بسرًا وحكمة
وأن رسول الله شيخى وقدوتى
وعاهدنى عهدًا حفظت لعهدى
وعشت وثيقًا صادقًا بمحبتى
وحكمنى فى سائر الأرض كلها
وفى الجن والأشباح والمردة
وفى أرض صين الصين والشرق كلها
لأقصى بلاد الله صحت ولايتى
أنا الحرف لا أقرا لكل مناظر
وكل الورى من أمر ربى رعيتى
وكم عالم قد جاءنا وهو منكرو
فصار بفضل الله من أهل خرقتى

وما قلتُ هذا القولُ فخراً وإنما
أتى الإذن كى لا يجهلون طريقتي
غنيت عن الدنيا بفيض عطائه
وأنى عطاياهم يدانى عطيتى ؟
وصرتُ على بُعد المسافات واصلاً
لأدنى دنو فى ارتفاعى لغايتي
فوجه الحبيب الحق مشرق وجهتى
ونور الحبيب الحق ساطع قبلتى
وفى القلب أشواق يترجم فيضها
عن الألق السامى إلى قدس حضرة
شهدت وشاهدنا ، وطابت نفوسنا
وقد لذلى ذللى إليه وخشيتى
أحن على ذل ، وأهوى على هدى
وأسرى على علم لأنوار طلعة
رضيت به حتى دخلت رياضه
فأنعم بها من روضة أى روضة
وما لذة العشاق إلا يقينهم
بشميل جميع بعد طول تشتت
وأغسل قلبى من سواك ، ولم أجد
لنفسى إلا نور ذاتك بغيتى
تعاليت بالعطف الكريم ، رعاية
فباركت زلاتى وأمنت روعتى

فطرة النفس

لأبى العباس المرسى

« والنفسُ بين نزولٍ في عوالمها
كآدمٍ وله حواءٌ في قرْنِ
والروحُ بين ترقُّ في معارجها
وهى الموافقُ للتعريفِ والمنينِ »

« هو الإمام العارف بالله شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الخزرجى الأنصارى المرسى البلسى ، ولد في مرسية من مقاطعة بلنسية بالأندلس سنة ستمائة وست عشرة هجرية ، ونسب إليها فسمى المرسى ، وقد مع شيخه أبى الحسن الشاذلى إلى مصر سنة ستمائة واثنيتين وأربعين هجرية وأقاما بالاسكندرية وأخذ أبو العباس يلقى الدروس ويعلم مبادئ السلوك وتطبيب النفوس في جامع العطارين ، وذاعت شهرته - بعد موت شيخه الشاذلى - وتلقى العلم على يديه وصاحبه كثير من علماء عصره كالبوصيرى وياقوت العرش والسكندرى وابن دقيق العيد والعز بن عبد السلام والحافظ المنذرى - وتوفي سنة ستمائة وخمس وثمانين هجرية . »

يقول أبو العباس المرسى :

إن كنت سائلنا عن خالص المنن
وعن تآلف ذات النفس بالبدن
وعن تشبثها بالحظّ منذ ألفت
أدراؤها فغدت تشكو من العطن
وعن بواعثها بالطبع مائلة
تهوى بشهوتها في ظلمة الشجن
وعن حقيقتها في أصل معدنها
لا يثنى وصفها منها إلى وثن
وعن تنزلها في حكمها ولها
علم يفرقها في القبح والحسن
فاسمع هديت علومًا عز سالكها
على البيان ولا يغرك ذو لسن
قصداً إلى الحق لا تخفى شواهدُها
قامت حقائقها بالأصل والفن
يا سائل عن علوم ليس يُدرَكها
ذو فكرة بفهوم لا ولا فطن
لكن بنور على جامع خمدت
له العقول وكلُّ الخلق في وسن

خُذْهَا إِلَيْكَ بِحَقِّ لَسْتِ جَاهِلَةٌ
 وَالْأَمْرُ مُطْلَعٌ وَالْحَقُّ قَيْدَنِي
 عَلَى الْحَقِيقَةِ خُذْ عِلْمَ الْأُمُورِ وَلَا
 تَحْجِبْكَ صَوْرَتُهَا فِي عَالَمِ الْوَطَنِ
 ففَطْرَةُ النَّفْسِ سِرٌّ لَا يُحِيطُ بِهِ
 عَقْلٌ تَقْيِيدُ بِالْأَوْهَامِ وَالْدَرَنِ
 لَكِنِهَا بَرَزَتْ بِالْحَكْمِ قَائِمَةٌ
 حَتَّى تَأْلَفَهَا السَّكَاكُ بِالسَّكَنِ
 وَكَيْ يَقَالُ عَبِيدٌ قَائِمُونَ بِمَا
 أَلْقَى مِنَ الْأَمْرِ قَبْلَ الْخَلْقِ وَالْمَحْنِ
 وَالنَّفْسِ بَيْنَ نَزُولٍ فِي عَوَالِمِهَا
 كَأَدَمَ وَلَهُ حَوَاءٌ فِي قَرَنِ
 وَالرُّوحِ بَيْنَ تَرَقُّقٍ فِي مَعَارِجِهَا
 وَهِيَ الْمَوَافِقُ لِلتَّعْرِيفِ وَالْمَنْنِ
 مِنَ الْحَجَابِ دَنَتْ أَنْوَارُهَا فَبَدَتْ
 نُورًا تَنْزِلُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْدَّمِّ
 مِثَالَهَا فِي الْعُلَا مِرَاةٌ مَعْدِنِهَا
 الطَّافُهَا خَفِيَّةٌ كَالسَّرِّ فِي الْعَلَنِ
 زَيْتُونَةٌ زَيْتُهَا نُورٌ لِصَاحِبِهَا
 قَامَتْ حَقَائِقُهَا بِالْأَصْلِ وَالْقُنَنِ

ونار دعوتها ماءً لشاربها
مُدَّتْ هدايتها في الكون والكُـبْنِ
والكلُّ أنتَ بمعنَى لاخفاء به
والنور يحجبهُ كالماءِ في اللَّـبَنِ
والعبدُ محتجبٌ في عزِّ مالِكِهِ
دقت معارفُهُ في الدهر والزمنِ

ظهرت لكل الكون

لابن عطاء الله السكندري

« ظهرت لكل الكون ، فالكونُ مظهرٌ
وفيه له أيضا كما جاءت الصحفُ
فأُتي فؤادٍ عن ودادك ينثني
وأية عينٍ بعد قربك لن تغفو »

« هو تاج الدين أبو العباس أحمد بن عطاء الله من أهل العلم في التفسير والحديث والنحو والفقه والأصول ، صاحب أبا العباس المرسى وأخذ عنه ثم استوطن القاهرة وكان له كرسى في الأزهر يجلس عليه ليشرح علوم القوم وآثار السلف ، توفى بالمدرسة المنصورية في القاهرة سنة سبعمائة وتسع هجرية ، ومن أشهر آثاره مجموعة الحكم التي نظمها والتي تفيض بالرمزيات وتهيبها الشراح لأنها في رأيهم تشتمل على الأسرار المصونة والجواهر المكنونة ، بالإضافة إلى آثاره الشعرية التي تدل على موهبة أصيلة وبيان محكم . »

يقول ابن عطاء الله السكندري :

وكلّ محتاجٌ ، وأنت لك الغنى
ومثلى من يُخطئى ، ومثلك من يعفو
وأنت الذى أبدى الوداد تكرماً
ومثلك من يرعى ، ومثلى من يجفو
وما طاب عيش لم تكن فيه واصلًا
ولم يصف ، لا والله ، أنى له يصفو
عزمتُ على أن أترك الكون كله
وأقفو سبيلَ الحبِّ ، والمُجتبى يقفو
شهود كمو يجلو الحجاب لأنه
إذا حقّق التحقيق صار هو الكشف
وما أحسنَ الأحبابَ فى كلّ حالة
فالله ما يُبدوا والله ما يخفوا
وإن الأولى لم يشهدوك بمشهد
قلوبهم عن نيل سر الهوى غلف
وأنت الذى أظهرت ثم ظهرت فى
جميع المبادي مثلما شهد العرف
ظهرت لكلّ الكون، فالكون مُظهر
وفيه له أيضًا كما جاءت الصحف
فأى فؤادٍ عن فؤادك ينتنى
وأية عينٍ بعد قريبك لن تغفو

وأية نفسٍ لم يملها هواكمو
على حُبِّكم طُرًّا ، نفوسُ الورى وقفُ
ويقول ابن عطاء الله السكندرى فى وصف الطريق وشرح أحوال
سالكيه والنصح لمن يريد رشاد الهداية :
أيا صاحِ هذا الرِّكبُ قد سار مُسرِّعًا
ونحنُ قعودٌ ، ما الذى أنت صانعُ
أترضى بأن تبقى المُخلفُ بعدهم
صريع الأمانى ، والغرام ينازع
وهذا لسان الكون ينطق جهرًا
بأن جميع الكائناتِ قواطعُ
وأن لا يرى وجه السبيل سوى امرى
رمى بالسوى لم تختدعه المطامعُ
ومن أبصر الأشياءِ والحقُّ قبلها
فغيبَ مصنوعًا بمن هو صانعُ
بواده أنوار لمن كان ذاهبًا
وتحقيق أسرار لمن هو راجعُ
فقم وانظر الأكوان والنور عمَّها
ففجرُ التدانى نحوكَ اليومَ طالعُ
وكن عبده ألقِ القيادة لحكمه
وإياك تدبيرًا فما هو نافعُ

أَتَحْكُمُ تَدْبِيرًا وَغَيْرُكَ حَاكِمٌ
 أَأَنْتَ لِأَحْكَامِ الْإِلَهِ تُنَازِعُ ؟
 فَمَحِّصُوا إِرَادَاتِ وَكُلُّ مَشِئَةٍ
 هُوَ الْغَرَضُ الْأَقْصَى فَهَلْ أَنْتَ سَامِعٌ
 كَذَلِكَ سَارِ الْأَوَّلُونَ فَأَدْرِكُوا
 عَلَى إِثْرِهِمْ فَلْيَسِرْ مَنْ هُوَ تَابِعٌ
 عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكُ مَنْ كَانَ طَالِبًا
 وَمَا لَمْ تُسْتَمِنْ مَنْ يُحِبُّ لَوَامِعُ
 عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكُ مَنْ كَانَ بَاكِيًا
 أَيَذْهَبُ وَقْتُتْ وَهُوَ بِاللَّهْوِ ضَائِعُ

سُكْرُ الْحُبِّ

لابن أرقم النميري الأندلسي

« فما بالهم سُكْرُ المحبةِ أنكروا
ولا شربوا من خمر وجدانها صرفا
يريدون إدراك المعانى حَقِيقَةً
وهل يجدُ التحقيق من لم يُجدُ وصفاً »

« هو أبو محمد عبد الله بن عبد العظيم بن أرقم النميري الأندلسي من أهل وادي آش ، يكنى أبا عامر ، يقول عنه لسان الدين ابن الخطيب في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة (الجزء الثالث) :
« كان أحد شيوخ بلدي وطلبته ، مشاركاً في فنون من فقه وأدب وعربية وهي أغلب الفنون عليه ، وكان مطرح السمت ، مخشوش الزى ، قليل المبالاة بنفسه ، مختصراً في كافة شئونه ، وكان بيته معموراً بالعلماء أولى الأصالة والتعين ، وقد تصدر ببلده للفتيا والتدريس والاستماع ، وكانت وفاته ببلده سنة أربعين وسبعمائة هجرية » .

يقول ابن أرقم النميري الأندلسي :
 تعالوا تُعاطيها مُقدَّسةً صِرْفا
 فنرشفُها في بسْطِ روض الهدى رشفاً
 أنار بها الأكوان نوراً فأشرقَت
 ومن قبلِ موجوداتها وُجِدَت لُطفاً
 شربنا بأكوابِ الصفاء صفاءها
 فللهِ ما أحلى هواها وما أصفى
 وغبنا عن الإحساسِ من طيبِ سُكرها
 فلاحَ لنا في الكونِ ما لم يكنْ يخفى
 ولما تجلَّى الحسنُ في حُجبِ قُدْسِهِ
 حُجبنا فلم نُبصرِ جواباً ولا سُجفاً
 ورُحنا بروضِ الأنسِ نجنى ثماره
 ونقطفُ بالإخلاصِ أزهارها قطفاً
 وبعنا بِسرِّ الحبِّ في مجلسِ الهوى
 ولم نخشَ إذ بُحنا بِسرِّ الهوى حتفاً
 ونحن أناسِ ليس ينكرُ أمرُنا
 عرفنا وعرفنا المعارفُ والعرفا
 فما بالهم سكرَ المحبةِ أنكروا
 ولا شربوا من خمر وجدانها صرْفاً

يريدون إدراك المعانى حقيقة
 وهل يجد التحقيق من لم يجد وصفا
 وما الحق إلا ظاهراً في وجوده
 وأسراره في شرح آياته تُلَفَى
 فلو قصدوا المقصود بالصدق شاهدوا
 مصابيح أنوار تنزه أن تُطفأ
 ولو أخلصوا في ذاته وصلوا به
 إليه ، ونالوا عنده أجر من وفى
 ولو لحوا معنى المحاسن صيغة
 لما وصفوا قرطاً ، ولا ذكروا شفا
 ألا أيها الساقى ظمئنا فسبقنا
 بالطافها يشفى من الجهل ما يُشفى
 وعاود ففى الأكواب منها بقية
 بها العيش يستحل ، بها الأنس يستوفى
 وما طيبها إلا بلطف مديرها
 بحيث مُنادى الرشيد نبه من أغفى
 أمولاي يا مولاي دعوة مبعيد
 على الهلك من تسويف رحلته أشفى
 بعثت ودادى وإشتياقى وسيلة
 وإنى فى باب الرجا بأسط كفا
 وإن ذنوبى كالجبال رجاحة
 وحبك يا مولاي ينسفها نسفا

الملجأ الأحمى

لابن الجيآب الأندلسى

« محبته شرطُ القبولِ ، فمن خلتُ
صحيفتهُ منها ، فقد زاعَ واشتطأَ
به الحقُّ وضاحٌ ، به الإفكُ زاهقٌ
به الفوزُ مرجوٌ ، به الذنبُ قد حطأُ »

« هو أبو الحسن على بن الجيآب الأنصارى الأندلسى ، من أهل
غرناطة جاء فى ترجمته فى كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة (الجزء
الأول) :

« شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ ، كان على ما كان عليه من التفنن
والإمامة فى البلاغة والأخذ بأطراف الطلب والاستيلاء على غاية الأدب ،
صاحب مجاهدة وملازمة عبادة ، على طريقة مثلى فى الاستقامة
والنزاهة وإيثار التقشف ، محب لأهل الخير والصلاح .. وهو شيخ
طلبة الأندلس دراية وتحقيقاً ومشاركةً فى كثير العلوم ، توفى سنة تسع
وأربعين وسبعمائة هجرية » .

يقول ابن الجيَّاب الأندلسي :

أهزلاً وقد جدَّت بك اللَّمَّةُ الشمطا
وأمنأ ، وقد سادرتها حيَّة رقطا
أغرَّكَ طول العُمُرِ في غير طائل
وسرك أن الموت في سيره أبطل
رويدا فإن الموت أسرع وأقيد
على عُمرك الفانى ركائبه خطا
فإن ذاك لا تستطيع إدراك ما مضى
بحال ، ولا قبضا تطيق ولا بسطا
تأهب فقد وأفأك سيبك منذرا
وها هو في فؤديك أحرفه خطا
فرافقت منه كاتب السر واشيا
له العلم الأعلى ، يخط به خطا
معمى كتاب فكه احذر ، فهذه
سفينة هذا العُمُر قاربت الشطا
وقد طالما خاضت بك اللُّجج التى
خبطت بها في كل مهلكة خبطا
ومازلت في أمواجهها متقلبا
فأونة رفعا ، وأونة خطا
فقد أوشكت تلقيك في قفر حفرة
يُشدُّ عليك الجانبان بها ضغطا

ولسنت على علم بما أنت بعدها
 ملاقاً ، أرضواناً من الله أم سُخطاً
 وأعجبُ شىء منك دعواك في النهى
 وهذا الهوى المردى على العقل قد غطى
 قسطت عن الحق المبين جهالة
 وقد غالطتك النفس ، قادت القسطا
 وطاوعت شيطاناً تجيب إذا دعا
 وتقبل إن أغوى وتأخذ إن أعطى
 تناءى عن الأخرى ، وقد حان حينها
 تدانى من الدنيا ، وقد أزمعت شحطاً
 وتمنحها حباً ، وفرط صباية
 وما منحت إلا القتادة والخمطاً
 فها أنت تهوى وصلها وهى فارك
 وتامل قرباً من حماها وقد شطاً
 صراط هدى نكبت عنه عماية
 ودار ردى خالفت فى حبها الشرطاً
 فما لك إلا السيد الشافع الذى
 له فضل جاه كلما يرتضى نُعطى
 دليل إلى الرحمن ، فانهج سبيله
 فمن حاد عن نهج السبيل فقد أخطا

محبته شرطُ القبولِ فمن خَلَتْ
 صحيفتهُ منها فقد زاعَ واشتطأَ
 وما قُبِلَتْ منه لدى الله قُرْبَةٌ
 ولا زَكَتِ الأعمالُ بل حَبِطَتْ حَبَطًا
 به الحقُّ وضاحٌ ، به الإفكُ زاهقٌ
 به الفوزُ مرجوٌّ ، به الذنبُ قد حُطَّ
 هو الملجأُ الأحْمَى ، هو الموئلُ الذي
 به في غدٍ يستشفعُ المذنبُ الخطأَ^(١)
 لقد مازجت رُوحِي محبته التي
 بقلبي خُطَّت قبل أن أعرفَ الخطأَ

(١) أي الخطاء (الكثير ارتكاب الخطايا) .

سلمى

اليافعى

« فياليلةً فيها السعادات والمنى
لقد صغرت في جنبها ليلة القدرِ
فلما شربنا الراح في ساحة الرضا
أتانا أغرُّ السعد بالخلع الخضرِ »

« هو عقيف الدين عبد الله اليافعى ، ولد في اليمن ودرس الفقه وعلوم القرآن ومال إلى التصوف ، فارتحل إلى القدس ودمشق والحجاز ومصر وأخذ العلم عن أعلام علماء عصره حتى صار مشهوراً له بالفضل والمنزلة ، له مؤلفات مشهورة في التصوف ، أهمها: « روض الرياحين في مناقب الصالحين » الذى يضم سير خمسمائة من أولياء الصوفية ، « ونشر المحاسن الغالية في فضل أصحاب المقامات العالية » وفيه يشرح اليافعى الأحوال والمقامات بأسلوب أدبى جميل ، كما دون فيه أكثر ما نظمه من قصائد في الحب الإلهى والترانيم الصوفية .

توفى سنة سبعمائة وثمانى وستين هجرية .

يقول اليافعى :

سلا عن حمى سلمى، وعن أهله الغرّ
 عسى خبرٌ يلقاكما ، طيبٌ الذكرِ
 يجيئُ به من نحوها عذبٌ منطق
 يفوح به من ريحها طيبٌ النشرِ
 يُخبر عن سلمى وعن ذلك الحمى
 وقول لسان الحال في نظمه الدرّى
 رعى الله عهداً مرّاً مع جيرة الحمى
 هنا في رياض زاهرات به زهرِ
 سقتنا بها سلمى من الراح عندما
 بدت فأضياء الكون من جانب الخدرِ
 أماطت حجاباً عن بهاء جمالها
 فهمنا سكارى في المهامة والقفرِ
 نرومُ التسلى عن هواها يبعُدنا
 وكلُّ جمالٍ في الوجود بها يغرى
 خليلٌ ما سلمى ونجدٌ وما الحمى
 وما راحها ، ما كأسُها ، ما الهوى العذرى
 شربنا حمياً الكأس في قدسِ حضرة
 وأكرم بها في حضرة القدس من خمرِ
 لنا عُصرت من كرم نورِ جمالٍ من
 سقانا ، وقد غبنا وحرنا فما ندرى

سكرنا بها من شمها قبل شربها
 نشاوى بريّاها إلى آخر الدهر
 أو السكر ذا من رؤية الكأس ، أو أنت
 به رؤية الساقى إلينا ذوى السكر
 تجلّى بأوصاف الجمال فشاهدت
 عيون قلوب ما به حار ذو الفكر
 فياليلة فيها السعادات والمنى
 لقد صغرت في جنبها ليلة القدر
 فلما شربنا الراح في ساحة الرضا
 أتانا أغر السعد بالخلع الخضر
 رسول عنايات برسم ولاية
 وتصريفنا في الملك في البر والبحر
 وضاعت لنا أنوار غيب وشوهدت
 أمور وأعلمنا بها أنها تجري
 وحلت بوادي طور قلب معارف
 زهت فيه كم حسناء في داخل الخدر
 وكم حكم تجلى ملاح ، كأنها
 عرائس أبكار على منطق الدر
 وكم يدفع الله البلايا بسادة
 من الخلق في كشف الشدائد والضّر
 فمن لم بذّا يؤمن ، فقولوا له إذا
 تجرّا على الغر المشايخ بالانكر

تجلى فضولا في فضائل سادة
لهم في سما مجد المفاخر كم قصير
مقامات أحباب ترى الشهب دونها
بنوها بياقوت المواهب والدر
تضيء الدياجي من بهاء جمالها
بما يهتدي من العلا نحوها يسرى
وما تلك من أشباه عشك ، فادرجي
إلى جوف عش في الغيابات أو جحر

المنبهجة

لمصطفى البكرى

« مولاي أَتَيْتُكَ منكسراً
وبغيرك شوقى لم يهيج
هل غيرُ جنابِكَ يقصد ، لا
وجمالك ذى الحُسنِ البهيج »

« ولد في دمشق سنة ألف وتسع وتسعين هجرية ، حيث تعلم العلوم الدينية ثم انتسب إلى الطريقة الخلوتية وأخذ عن مشايخها وأقطابها ، ونذر نفسه للزهد والتقوى والتزوه للأخرة ، ثم هاجر إلى مصر ونشر فيها الطريقة الخلوتية - التى ما يزال لها أشياع ومريدون حتى اليوم - حيث توفى سنة ألف ومائة واثنتين وستين هجرية ، بعد أن ترك آثاراً شعرية وأورادا وابتهالات صوفية كثيرة من بينها هذه القصيدة التى سميت بالمنبهجة ويقرأها جميع مريديه يومياً قبل صلاة الفجر . »

يقول مصطفى البكرى :

قم نحو حماه وابتهج
وعلى ذاك المحيّا فعج
ودع الأكوان وقم غسقا
واصدق فى الشوق وفى اللّهِج
والزم باب الأستاذ تفز
وتكون بذلك خلّ نجى
واخرج عن كلّ هوى أبدا
ودع التّفيق مع الهزج
إياك أخى ترافق من
لم ينهك عن طرق العوج
اقنع وازهد واتركه كذا
ك بباب سواه لا تلج
وادخل للّحان خليلي ومِل
نحو الخمار أبى السُّرج
واشرب واطرب لا تخش سؤى
إياك تمل عن ذى النهج
كم أنت كذا ، لم تصح ، أفق
وإلى الأبواب فقم ولج

مـولاي أتيتك منكسراً
 وبغيرك شوقى لم يهـج
 وأتيتُ إليك خلياً من
 صومى وصلاتى مع حجـجى
 وكذا علمى وكذا عملـى
 وكذاك دليلى مع حجـجى
 لا أملك شيئاً غير الدَّمـ
 مع مخافة أن يغشى وهجـى
 هل غيرُ جنابك يُقصـدُ ، لا
 وجمالـك ذى الحسنِ البهـجِ
 من يقصد غيرك فهو إذا
 بظلامِ البعد تراه فجـى
 من أنت تُضِلُّ فذاك من الـ
 هلاكٍ ومن تهـدى فنـجـى
 ودموعُ العين تُسابقنـى
 من خوفك تجرى كاللـجـجِ
 يا عاذلَ قلبى ويكُ فدعُ
 عذلى واقصر عـن ذا الحـرجِ
 كم تعذلنى لم تعذرنـى
 دعنى فى البسطِ وفى الفـرجِ

أَذْنَىٰ لِحَبِيبِي صَاغِيَةً
صُمِّتَتْ عِنْدَ الْوَأَشَى السَّمِجِ
يَا صَاحِبَ حَانَ الْخَمْرِ أَدِرْ
صَرْفًا وَاتَّكِرْ لِلْمَمْتَزَجِ
وَأَدِرْ كَأْسَ الْأَسْرَارِ وَدَعِ
نِ أَصِيرُ بِهِ مِنْ ذِي الْهَمِجِ
مَوْلَايَ بَسَرَ الْجَمْعِ كَذَا
كَ وَجَمْعِ الْجَمْعِ وَكُلُّ شَجِي
بِالذَّاتِ بَسَرُ السَّرِّ ، بِمَنْ
إِفْضَالِكَ رَبِّي مِنْكَ رُجِي
بِحَقِيقَتِكَ الْعَظْمَى رَبِّي
وَبِنُورِ النُّورِ الْمُنْبَاجِ
بِعَمَاءٍ كُنْتُ بِهِ أَزَلًّا
بِمُحَمَّدٍ مِنْ جَا بِالْبَلَاجِ
وَبِسَرِّ الْقُرْبِ كَذَاكَ الْحَا
بِّ ، وَأَهْلَ الْجَذْبِ الْمُنْعَرِجِ
وَبِمَا أَوْجَدْتُ مِنَ الْأَكْوَا
نِ بِمَا فِيهِنَّ مِنْ الْأَرَجِ
وَبِأَهْلِ الْحَى وَبِهِجَتِهِمْ
وَبِبَحْرِ الْقُدْرَةِ وَالْمَرْجِ

وبطيِّبِ الوَصْلِ وَلِذَتِهِ
 بِبَسَاطِ الْأَنْسِ الْمُتَنَسِّجِ
 وَبِقَلْبِ فِي بِلَوَاكَ غَدَا
 وَحَيَاتِكَ لَيْسَ بِمَنْزَعِجِ
 بِتَجَلَّى اللَّيْلِ وَعَالِهِ
 وَظِلَامِ الْكَوْنِ كَمَا السَّبَّحِ
 بِمَنْ أَزَلَ أَفْلَاكَ وَكَذَا
 بِمَطَالَعِهَا ثَمَّ الْبُرْجِ
 بِالْأَلِّ ، بِصَحْبٍ ، مِنْ بِهِمُو
 كُلُّ الْخَيْرَاتِ إِلَيْنَا تَجِي
 يَسَّرْ وَأَجْرُ كَسْرِي ، بِرَضَا
 لِيَكُونَ بِوَصْلِكَ مَبْتَهِجِي
 وَاخْلَعْ خِلْعَ الرِّضْوَانِ عَلَى
 صَبٍّ فِي حُبِّكَ جِبُّ هَجِ
 وَامْنَحْ قَلْبِي نَفَحَاتِكَ يَا
 مَوْلَايَ وَعَجِّلْ بِالْفَرَجِ
 وَاحْسِرَةَ قَلْبِي إِنْ لَمْ تَمُحْ
 خَطَايَا الذَّنْبِ مِنَ الدَّرَجِ
 وَاغْفِرْ يَا رَبِّ لِنَاظِمِهَا
 وَلَهُ رَقِّي أَعْلَى الدَّرَجِ

واسمَحْ للسامِعِ ما نُشَدت
 قِمْ نَحْوَ حماهُ وابتَهَجِ
 أو ما جاء سَحَرًا يحدو
 الشَّدَّةُ أودتْ بِالمَهْجِ
 وصَلِّ لآلةِ الله على الهادى
 وسلام يُهدى فى الحِجِ
 لمحمدنا ولأحمدنا
 ما فاح أقحاح فى المُرْجِ
 ما مال مُحب يهواه
 أو سار الركبُ على السُّرْجِ
 أو ما داع يدعوا المولى
 يرجو للنصر مع الفرْجِ

مالى سواك

لأحمد الحلوانى

« أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِمَّا قَدْ قُلْتُهُ وَهُوَ زَوْرٌ
وَمَنْ تَنَاسَى بِنَاسٍ ، عَمَّنْ هُوَ الْمَذْكُورُ »

« هو الشيخ العلامة أبو عبد الرحيم أحمد بن إسماعيل الحلوانى
الخليجى الشافعى ، ولد سنة ألف ومائتين وتسع وأربعين هجرية فى
بلدة رأس الخليج من أعمال محافظة الغربية، وحفظ القرآن ثم أتقن
علوم الدين واللغة ، ثم ارتحل إلى طنطا لتحصيل المزيد من العلم حتى
انتهى به الأمر إلى الأزهر الشريف حيث تتلمذ على صفوة الأعلام من
علمائه كالقصبى والباجورى والخضرى والشبراوى . توفى سنة ألف
وثلاثمائة وثمانى هجرية بعد أن ترك وراءه عدة مصنفات دينية
والكثير من الأشعار والأذكار الصوفية »^(١).

(١) السمو الروحى فى الأدب الصوفى تأليف أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى.

يقول أحمد الطواني :

أستغفر الله ربّي
 مما جناهُ جناني
 أو الجوارح منّي
 أو ظاهرٌ ليس يخفى
 أستغفرُ الله مما
 ومن تناسٍ بناسٍ
 ومن خلافٍ أمورٍ
 أستغفرُ الله ممّا
 من كلّ أمرٍ معيبٍ
 لم يُرض ربّي وقلبي
 إن سرتُ يوماً إليه
 وعند أولِ جزءٍ
 وإن توخيتُ خيراً
 وإن تهملتُ يوماً
 وللتّقدم أنوى
 هبني تقدّمتُ ، ماذا
 وهبه غيرَ نفورٍ
 عدمته من فؤادٍ
 أنوى فيذهبُ لبّي
 أظللُ أحسبُ فيها

فالله ربّ غفورٍ
 أو اللسانُ العثورُ
 فإنها قد تثورُ
 أو باطنٌ مستورُ
 قد قلّته وهو زورُ
 عمّن هو المذكورُ
 أنا بها، مأمورُ
 جرى به المقدورُ
 قد كنتُ فيه أمورُ
 بكسبه مسرورُ
 أطير حين أسيرُ
 منه يجيء الأخيرُ
 صرفاً فكم أستخيرُ
 إليه جاء الفُتورُ
 فيعرضُ التأخيرُ
 يُجدي وقلبي نفورُ
 هل فيه ثمّ حضورُ
 عند الصلاة يطيرُ
 وفي السلام يحورُ
 وما تحتويه الدهورُ

مَوَكَّلٌ أَوْ أَجِيرٌ
لَقُلْتُ : ذَا مَبْهُورٌ
وَلَوْ بَصِيرًا ضَرِيرٌ
عَلَى عَمَاهُ بَصِيرٌ
فُجُورُهَا مَفْجُورٌ
إِلَى الْخَطَى تَسْقِطِيرٌ
عَلَيْهِ يُطَوَّى الضَّمِيرُ
جَرَى بِهِ التَّعْبِيرُ
فَذَاكَ شَيْءٌ كَثِيرٌ
أَسْرَى وَطُورًا أَسِيرٌ
مَنْ أَجْلَهَا مَقْطُورٌ
وَعُمْهَا مَذْخُورٌ
كُتَابِي الْمَسْطُورُ
إِذَا بَدَا الْقَصْرِيرُ
وَبِالسَّمَاكِ حَسِيرُ
وَأَنْتَ رَبِّ قَسْدِيرُ
جَدًّا وَأَنْتَ الْكَبِيرُ
إِذَا أَسَاءَ الْحَقِيرُ
مَنْ رَبُّهُ يَا مُجِيرُ
عَلَيْكَ بَسْلُ اسْتَجِيرُ
سَمَوَاهُ لَيْسَ يُجِيرُ

كَأَنْتَنِي بِحَسَابِي
قَلَو تَرَانِسِي فِيهَا
فَفَسِي الْعِبَادَةِ طَرْفِي
وَفِي الذَّنُوبِ فُؤَادِي
يَا وَيْلَنَا مِنْ ذُنُوبٍ
وَمِنْ خَطَايَا اللُّوَاتِي
وَأَهْ مِنْ كَلِّ إِثْمٍ
وَمِنْ مَقَاصِدِ سُوءٍ
شَيْءٌ وَمِنْ لَسْتُ أَدْرِي
قَبَائِحُ كُنْتُ فِيهَا
مَاتَتْ وَعَاشَتْ، فَقَلْبِي
سُرُرْتُ مِنْهَا زَمَانًا
نَسِيتُهَا وَدَعَايَا
مَاذَا أَقُولُ لِرَبِّي
يَا رَبِّ أَنْتَ رَحِيمٌ
يَا رَبِّ أَنْتَ عَفُوٌّ
يَا رَبِّ إِنْسِي حَقِيرُ
وَشَأْنُ مَنْ جَلَّ يَغْفِي
وَأَيْنَ تُرَبُّ خَسِيرُ
وَمَا أَرِيدُ احْتِجَاؤًا
أَجْرُ عِبِيدِكَ يَا مَنْ

وهل سواكَ نصيرُ	مالي سواكَ أغثنى
بـدرُ السماءِ المنيرُ	ولى إليك شفيحُ
إذا السماء تمورُ	غوثُ الأنامِ المرجى
كشرى ، فإنى كسيرُ	به توسلتُ فاجبر
ما فاض منه النورُ	واسكُب عليه التحايا

تعشقت نور الله

للشيخ على عقل

وهل غير ذات الله للنفس مطلب
حرامٌ سوى الرحمن يدخلُ في نفسى
وما اتَّخذت روى سوى الله غايةً
فتم الهدى للروح والقلب والحسُّ

« هو الشيخ على عقل أحد علماء العصر في التصوف والعلوم الشرعية ، ولد سنة ألف وثمانمائة وأربع وتسعين ميلادية ، وكف بصره بعد مولده ، فوهبه والده للقرآن والدين منذ صغره ، ودرس في الأزهر الشريف ، ثم تقلبت به مجالس الذكر والإنشاد حتى صار علماً يتعشقه المريدون ، توفي سنة ألف وتسعمائة وثمانى وأربعين بعد أن ترك ديوانا شعريا يضم ترانيمه الصوفية ومدائحه النبوية هو ديوان « الإلهام »^(١).

(١) السمو الروحى فى الأدب الصوفى تأليف أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى .

يقول الشيخ على عقل :

قتلتُ هوى نفسى ، فعشتُ بلا نفسٍ
وجافيتُ أنسى ، فانحدرتُ إلى الأنسِ
ولم أبداً أمرى للعباد ، فطالما
كتمتُ الذى ألقى عن الجنِّ والإنسِ
وأدركتُ بالوجدان سرَّ أحبَّتسى
وعانيتُ آياتِ اليقين بلا لبسٍ
وعشتُ زمانى لست أحفل بالورى
وكيف ، وقلبى هام فى مشهدِ القدسِ
وعلمتُ غيرى ما أفاد من الهدى
فلم يبقَ ذو فهم لىدى على طمسٍ
إذا وسد الناسُ القبورَ ، فإننى
جعلتُ التقى والذكر بين الورى رمسى
ولم أخش من بأسٍ ولم أخش طاغياً
ومن يخش ذات الله لم ير من بأسٍ
وهل غير ذات الله للنفسِ مطلبٌ
حرامٌ سوى الرحمن يدخلُ فى نفسى
وتوجتُ بالقرآنِ نفسى عقيدهً
أصونُ به نفسى عن الزينغ والدسِ
وما اتخذتُ روحى سوى الله غايةً
فتم الهدى للروح والقلب والحس

وإن شرب الناس الطَّلَا وتصبَّبوا
 فُسُنَّةٌ خَلَقَ اللهُ فِي شَرْبِهَا كَأْسِي
 وإن رفع المَثْرُونُ عُجْبًا رُؤْسَهُمْ
 رفَعْتُ بِذِكْرِ اللهِ فَوْقَ الْوَرَى رَأْسِي
 وإن جعلوا الشمس اهْتِدَاءً لِيَوْمِهِمْ
 جَعَلْتُ رِضَا رَبِّي وَأَيْتَهُ شَمْسِي
 وإن غرسوا زَرْعًا لَنَيْلِ حَصَادِهِ
 فَتَقَوَّى إِلَهُ الْعَرْشِ بَيْنَ الْوَرَى غَرْسِي
 تَعَشَّقْتُ نُورَ اللهِ وَهُوَ بِصِيرَتِي
 وَقَدْ وَضَحَ الْبِرْهَانَ مِنْ آيَةِ الْكُرْسِي
 وَمَذْ شَاهَدَتْ رُوحِي جَلَالَكَ وَارْتَقَتْ
 تَجَرَّدْتُ عَنْ مَغْنَايَ فِي عَالَمِ الْحَسِّ
 أَحْبَبْتُكَ يَا رَبِّي مُحِبَّةً مُؤَقِّنَ
 وَمِنْ قُوَّةِ الْإِيمَانِ أُصْبِحُ أَوْ أُمْسِي
 فَوَادِي قَدْ أَبْعَدْتُ عَنْ مَشْهَدِ الْوَرَى
 فَطُهِرْتُ فِي نَجْوَاكَ مِنْ ظَلَمَةِ الرَّجْسِ
 أَطُوفُ عَلَى الْأَبْوَابِ قَلْبِي مُوجِعٌ
 وَلَيْسَ سِوَى رَحْمَاكَ لِلْقَلْبِ مِنْ نِطَاسٍ
 وَأَعْدَمْنِي فِي الْحُبِّ عِلْمِي بِقُدْرِهِ
 فَلَيْسَ غَرَامِي فِيهِ يَدْرِكُ عَنْ قِيَّاسِ
 وَلَمْ أَعْشَقِ الدُّنْيَا فَتَلَكَ مَجَازَةً
 تَهْيءُ لِلْآخِرَى وَفِي فَوْتِهَا عُرْسِي

لَقَاؤُكَ يَا رَحْمَنُ عَيْدِي وَعُدَّتِي
 وَنُورِكَ غِيثِي وَهَوْلِي فِي الْوَرَى أُنْسِي
 وَبَحْرُكَ مِنْهُ قَدْ لَقِيتُ جَوَاهِرِي
 بِشَاطِئِهِ سُفْنِي عَلَى لُجَّةِ غَطْسِي
 وَطِيبُ الْوَرَى وَرُسُ وَمَسْكَ وَعَنْبَرُ
 وَطِيبِي مِنْ مَحْيَاكَ أَسْمَى مِنَ الْوَرِسِ
 وَلَسْتُ مِنَ الدُّنْيَا ، أَمِيلُ إِلَى الْعُلَا
 فَإِنَّ عُلَا الدُّنْيَا لِأَصْحَابِهِ يُنْسَى
 أُمْتَعَ أَعْضَائِي بِذِكْرِكَ دَائِمًا
 وَهَلْ غَيْرُ ذِكْرِ اللَّهِ يَسْكُنُ فِي نَفْسِي
 وَكُلُّ رَجَائِي أَنْ أَحْبَبَكَ صَادِقًا
 إِذَا الصَّدُقُ فِي الْوُجْدَانِ مَرْتَبَةُ الْقُدْسِ
 وَمَا فَضْلُهُ وَقِفْ عَلَى أَيْ عَالَمٍ
 وَحَقِّكَ مَا حُدَّ الْعَطَاءُ عَلَى جَنْسٍ
 إِذَا رَضِيَ الرَّحْمَنُ عَنْ قَلْبِ عَبْدِهِ
 جَرَتْ مَرْكَبُ الْأَقْدَارِ مَعَهُ عَلَى الْيَبْسِ
 تَخَلَّ وَلَا تَحْفَلُ بِجَنٍّ وَلَا إِنْسٍ
 وَعَشْ فِي هَوَى الرَّحْمَنِ تَسْعُدُ بِالْأَنْسِ
 وَأَقْبَلْ عَلَى مَوْلَاكَ بِالْقَلْبِ مَخْلَصًا
 وَأَسْلِمْ وَسَلِّمْ وَأَتَّجِهْ طَالِبُ الْقُدْسِ
 وَخُذْ لَكَ بِالْإِيمَانِ أَصْدُقَ وَجْهَةً
 وَطَهِّرْ بِهَا نَفْسًا عَنِ الْغَى وَالرَّجَسِ

تجرد تجد مـولاك أكبر نـاصر
وفؤض له ما كان في الغد والأمس
حياة الورى خلو ومرو وإنما
حلا المرة بالتوحيد من رقة الحس
ومن لا يرى إلا الإله مراده
حرام عليه الخوض في العرش والكرسى
ومن يتعشق نوره وجلاله
فليس له التشبيب بالبدر والشمس
وإنك لو عظمت دينك عالماً
وعاملت بالحسنى وأدبت للنفس
وكننت على الأحداث بالله راضياً
سواءً عليك الموت أو ساعة العزس
سعدت من الدنيا بربك محسناً
ونلت من الأخرى عطاء بلا بخس
يقولون لى من أنت ؟ قلت : موحّد
إلى ربه يسعى ولم يكر من بأس
إذا قيل لى اطلب قلت ربى مطلبى
وإن قيل لى اشرب قلت أنواره كأسى
وكل عهد قد تنكس أصلها
ولكن عهد الله باق بلا طمس
سلونى عن العشاق قد ذقت حُبهم
وإنى لهم رأس إذا كان من رأس

وما هم سوى أعضاء جسمي وبزتي
أصافحهم ما شئت لكن بلا لمس
وما حيلتي إلا انكساري في الحمى
وإن انكسار القلب يكشف عن قدسي
وحلو الهوى عندي لقاء أحبتي
ومر الهوى عندي وفي هجرهم تغسي
وأعرف رحمانى وأدرك عفوهُ
وأنهض معتزاً وما أنا بالمنسى
وإن حبال الوجد تربط مهجتي
وقلبي بحب الله يعبق كالورس
وإن كنت في سعد فذلك فضله
وإن لم أكن من سادة العرب والفُرس
فقل للذي يزجي الشراع دع الكرى
تجد سفن الإحسان تجري على اليبس
وسر موقناً أن الإجابة للهوى
إذا ما دعا الداعي ولا تك في حدس
فكل الذي تراه والكون خلقه
وما نفع التفريق بالنوع والجنس
حسبت الهوى سهلاً فخضت عبابه
فطوراً به أطفو ، وطوراً به غطسى
إلى أن أتتني من لدنه عناية
وصلت بها برّ السلامة والأنس

موسيقى من الله

للشاعر محمود حسن إسماعيل

« الدَّرْبُ ضَوْءٌ لِلسُّرَاةِ حَقِيقَةٌ ، وَحَصَادَ نُورٍ
وَهْدَى الدُّجَى ، وَتَمَزَّقَتْ حُبُّ الرِّيَاءِ ، عَلَى الْحُضُورِ »

« محمود حسن إسماعيل أحد الأصوات الشعرية الكبرى في عصرنا الحديث ، ولد في قرية النخيلة بمحافظة أسيوط في الثاني من يوليو سنة ألف وتسعمائة وتسع وكانت وفاته - في الكويت - في الرابع والعشرين من أبريل سنة ألف وتسعمائة وسبع وسبعين ، عن رحلة شعرية طويلة وحافلة ، أصدر خلالها عددًا كبيرًا من الدواوين الشعرية تأكدت بها منزلته كشاعر أصيل له لغته الشعرية المتفردة وأسلوبه في التصوير والتعبير ، وتجاربه الوجدانية والكونية المميزة ، من بينها أغاني الكوخ - هكذا أغنى - أين المفر - نار وأصفاد - قاب قوسين - لابد - صلاة ورفض - نهر الحقيقة - هدير البرزخ - صوت من الله » وهذه القصيدة من ديوانه موسيقى من السر الذي صدر في الذكرى الأولى لرحيله .

يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل :

وهناك عند الفجر في إشراقة كلظى الهجير
وعلى خطى قمرية الإيماض ،
يسفح نورها كذب الصخور
روض رحيب ، أجهشت فيه الزهور
وتكلمت بعطوره لغة الطيور
وتأوتت ريح مجنحة المسير ، على مخاصره تدور
وترنمت ورقاء صالية الشعور
معشوقتي وعشيقته النغم المصفي في الوكور
وذبيحتي ، وأنا الذبيح ، وجازر الرؤيا أسير
مُتلفح تحت العروق ، بمهده الثمل الوثير
في كفه نهر الحياة ، لهيبه قلق مريد
وعلى شواطئه هتاف لج في ندم غرير
وضراعة بلهاء تصرخ وهي هالعة النفير
وخطيئة تلد الحياة ، ومهدا يلد الدثور
وصدي يغرد نائحا ، وبدمه يلغو السرور
وغمامة عرجاء دوخها المسير
أنا تسير وأنا تبكي المصير
والأفق مصلوب كسير
شحنته أوهام العصور
ومسايح النساك وهي على مزالقها تدور
الكف مؤمنة ، وظل الكف مشنقة الضمير

وتماثمت المتبتلين كأنها حرج الغواية في الصدور
 مسكينة الأصداء تُلْعَقُ في المداهنِ والبخورِ
 وتثنى في حباتها الدعوات ،
 جائعة الهدى لزجاج كوبٍ أو حصيرٍ
 متلَمَّطاتٍ للورودِ ،
 على هودجٍ أخلجتُ خشبَ النُّذورِ
 يتلَقَّفُ الأزوادَ ، من عبق تناسمٍ بالشُّورِ
 والنور ، من حلك تناعمٍ في الجذور
 والطُّهر ، من شطحاتٍ أوهام وزور
 وتعانقُ القُدسَ المنيع ، كأنما سكن السُّتور
 بفهيقٍ راغية محبرة على زبد الثغور
 ونقيقٍ غاوية مبعثرة على خبلٍ جسير
 متخالج اللمحات .. أعمى دُسٌّ في ألقٍ ضير
 طحنته سنبلة السيادة بالقشور
 والرزق ، والعوز المخدر بالسكينة والحبور
 ولواه جلاب المطايا للغرور
 ومضفر الأصلاب أعتابا مطهمة الظهور
 أقواسها تتدُّ السهام ، وتُنشِبُ العشبَ الحقيقير
 وتحيلُ هشَّ الوارفين ، مشاتلاً لرُبى القصور
 وعلى خضوع الهائمين بكفها تعلو الجسور
 وتدورُ تطحنُ في غيابتها ، فتطحنُ أو تدور !
 سبحان وهاب الظلام لمن يريدُ بصيص نور

سحبوا من الأكفان قُدرته ، ولجؤا في الثبور
 وتأودوا خبيئاً ، وتهتهه ، ولياً للصدور
 في حومة لا للسماء ، ولا التراب
 لدفعها نسب يُشير
 زعموا لقاء الله وحدهم ، وجلّ
 فنورُه غمر الدهور
 في الحب ، في الأمل المحلّق ، في الأجنّة ، في البذور
 في الريح ، في النسيم المرنح ، في العشايا والبكور
 في الطيف ، تلمحه ظلالٌ ظلاله فوق الغدير
 في السّفح ، في ضجر المغاور ، في البرازخ ، في البحور
 في كُلِّ راقىء دمعٍ من جفن مظلوم فقير
 في كُلِّ كاسر حلقة ، من قيد مهجورٍ أُسير
 في كُلِّ رافض لُقمة ، لليل ، جالبها أُسير
 في كُلِّ واهب روحه غوث التراب المستجير
 في كُلِّ ذاتٍ حركتْ عدم الفراغ إلى الصّريز
 في خُطوة القدم الذي هتك البراقع عن دجى
 القمر المنير
 وحداً السّديم ، وشق بين يديه أسرار الأثير
 ومشى على الأجيال ، يسحقُ جهلَ عالمها الضّير
 ويزيحُ ستر الغفل عن إعجاز خالقه القدير
 الدّربُ ضوءاً للسّراة
 حقيقةً ، وحصاد نور

وهوى الدُّجى ،
وتمزّقت حجبُ الرياء على الحضور
فاللهُ يصحبُ كُلَّ من صَحِبَ النهارَ ...
ومال عن غبشِ الستورُ

على باب الرجاء

شعر: طاهر أبو فاشا

« في طليعة الأصوات الشعرية المعاصرة ، ذاعت له شهرة من خلال كتابته الطويلة للبرنامج الإذاعي الشهير « ألف ليلة وليلة » والأوبريت الإذاعي « رابعة العدوية » التي سكب فيها عصارة شعره في الحب الإلهي الذي ضمَّنه ديوانه « راهب الليل » .

وقد أصدر الشاعر ، قبل وفاته ، مصنفه « ألف يوم ويوم » بعد أن أصدر دراسته الأدبية « الذين أدركتهم حرفة الأدب » عن الشعراء والأدباء الذين شقوا بحظوظهم في الحياة ، بالإضافة إلى ديوانيه الأخيرين : « الليالي » و « دموع لا تجف » .

يقول طاهر أبو فاشا :

غريبٌ على باب الرجاء طريحُ
يناديك موصول الجوى وينوحُ
يهون عذابُ الجسم والروح سالم
فكيف وروح المستهام جروحُ
وليس الذى يشكو الصبابة عاشقًا
وما كلُّ باكٍ فى الغرام قريحُ
يقولون لى غنى^(١) وبالقلب لوعةُ
أغنى بها فى خلوتى وأنوحُ
ولى فى طريق الشوق والليل هائمُ
معالم تخفى تارةً وتلوحُ
ولى فى مقام الوجد حالٌ ولوعةُ
ودمع أدارى فى الهوى ويروحُ
وأنت وجودى فى شهودى وغيبتى
وسرك نور النور أو هو روحُ
وما دخلتُ إلا إليك مواجدى
وداعى الهوى بالوالهين يصيحُ
بسرّ الهوى يغدو وفيه يروحُ
غريبٌ على باب الرجاء طريحُ

* * *

(١) الحديث على لسان رابعة العدوية فى الأوبريت الإذاعية التى تحمل اسمها .

حانةُ الأقدار عرِبت فيها ليالِها ودار النور
والهوى صاحي
هذه الأزهار كيف تسقيها وساقِها بها مخمور
كيف يا صاح

سألتُ عن الحبِّ أهلَ الهوى
سُقاةَ الدموعِ نداميَ الجوى
فقالوا حنانك من شجْوِه
ومن جدِّه بك أو لهوِه
ومن كدرِ الليل أو صفوِه
سلى الطيرَ إن شئتَ عن شذْوِه
ففى شذْوِه همساتُ الهوى
وبـروحِ الحنينِ وشرُّحِ الجوى

* * *

ورحنتُ إلى الطيرِ ، اشكو الجوى
وأسألهُ سرَّ ذاكِ الجوى
فقالَ حنانك من جُمُرِه
ومن صحوِ ساقِيه أو سُكْرِه
ومن نهْيِه فيك أو أَمْرِه
سلى الليلَ إن شئتَ عن سرِّه
ففى الليلِ يبعثُ أهلُ الهوى

* * *

ولما طوانسى السُّجى والجوى
لقيتُ الهوى وعرفتُ الهوى
ففى حانسة اللَّيْلُ خَمَّارُهُ
وتحت خيامِ السُّجى نِسَارُهُ
وفى كسَلُ شَسَى يَلْسُوحُ الهوى
ولكنْ لمن ذاقَ طَعْمُ الهوى

يا صُحْبَةُ الرَّاحِ : أَهْلُ الرَّاحِ هَلْ حَانُوا
وهَلْ تَغَنَّتْ عَلَى أَلْحَانِهَا الْحَانُ
صَبَا النَّدَامَى وَمَا فِى الْحَانِ الْحَانُ
فِى كَأْسِ عُمَرَى بَقَايَا ، مَنْ يُشَارِبُنِى
وَمَنْ يُطَارِحُنِى وَالْعَيْشُ رِيحَانُ
ثُمَّالَةُ مَنْ دَمَوْعِ الشَّجْوِ الْوَانُ
إِبْرِيْقُهَا رَاحِ يَبْكِي وَهُوَ فَرْحَانُ
ثُمَّالَةُ ، أَهْ لَوْ فَاسَاضْتُ ، وَأَهْ إِذَا
غَاضْتُ ، وَوَاهَا لَهَا ، وَالْقَلْبُ لَهْفَانُ
عَهْدِي بِهَا وَكُؤُوسُ الصَّفْوِ مُتْرَعَةٌ
بِهَنْ طَافَ عَلَى السَّكْرِى سَكِيرَانُ
لَا يَشْرَبُ السَّرَاحَ ، إِلَّا أَنْسَهُ ثَمِيلُ
نَشْوَانُ وَالْكَأْسُ فِى كَفِّيهِ نَشْوَانُ
تَرَى تَعُودُ اللَّيَالَى وَالْهُوَى مَعَا

يا غربة الكأس ، ما للكأس نُدْمَانُ

* * *

عرفتُ الهوى ، منذُ عرفتُ هواكا
وأغلقْتُ قلبي عمَّن سواكا
وقمتُ أناجيك ، يا مَنْ ترى
خفايا القلوب ولسنا نراكا
(أحبك حُبَّين : حُبُّ الهوى
وحُبًّا لأنك أهلٌ لذاكا)^(١)
(فأما الذى هو حُبُّ الهوى
فشغلى بذكرك عمَّن سواكا)
(وأما الذى أنت أهلٌ له
فكشفتُ لي الحُجُبَ حتى أراكا)
(فلا الحمدُ في ذا ولا ذاك لي
ولكن لك الحمدُ في ذا وذاكا)
وأشتاقُ شوقين : شوقَ النوى
وشوقًا لقربِ الخطى من حماكا
فأما الذى هو شوقُ النوى
فمَسرى الدموع لطولِ نواكا
وأما اشتياقى بقربِ الحمى
فنارُ حياةٍ خبتُ في ضياكا

(١) الأبيات الأربعة التى بين الأقواس من شعر رابعة العدوية .

ولستُ على الشَّجْوِ أَشْكَو الهوى
رضيتُ بما شئتُ لى فى هواكا

* * *

وغيرك لا يفيض ندى	لغيرك ما مددتُ يدا
فكيف تردُّ من قصدا	وليس يضيقُ بأبك بى
فكيف تذودُّ من وردا	وركنكُ لم يزل صمدا
إن عادى الزمان عدا	وأطفكُ يا خفى اللطفِ

* * *

ونحوك قد مددتُ يدا	على قلبى وَضَعْتُ يدا
ولا أدرى لأى مدى	سرى ليلى بغير هدى
ويرعانى الجوى أبدا	يطاردنى الأسى أبدا
ويطوينى الهوى جسدا	وينشرنى الهوى رُوحا
كأنى فى الفضاءِ صدى	وأطوى البيدَ طاويةً
وليلى والظلامُ ردى	نهارى والهجيرُ لظى
وإن أمسى فواكبدا	فواكبدا إذا أضحى
فقدتُ الأهلَ والسندا	وليس سواك لى سندٌ

* * *

على روحى جنتُ رُوحى	على عيني بكتُ عيني
وبينك سرُّ تبريحي	هواكُ وبُعْدُ ما بينى
وقد نامَ الخليونا	صحا من شجوه كأسى

فكيف أفرُّ من نفسي إذا هام المحبونا
حيائي منك يبعدني وداعى الشوق يُدنيني
ووجه الصفيح يُخلجني ويقتلني ويُحييني
خلوت إليك ياربى وقلت عساك تقبلنى

مددت يدي
إليك ومنك يا ربّاه
ومن طول النوى أواه



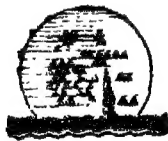
General Organization of the Alexandria Library (GOA)
Bibliotheca Alexandrina

الفهرس

٧ هذا الكتاب
١١ الرحلة في بحار العشق
٧٣ تعاظمنى ذنبى [للإمام الشافعى]
٧٧ هوانا حجازى [لأبى حمزة الخراسانى]
٨٣ غريب الدار [للبرعى]
٩١ نار ليلى [للشهرزورى]
٩٥ ته دلالة [لابن الفارض]
١٠٣ مريضة الأجفان [لابن عربى]
١٠٩ ربة السّتر [للإمام الصرصرى]
١١٥ وارحمنا للعاشقين [للسهروردي]
١٢١ إلهى يا سميع [لأحمد البدوى]
١٢٧ سقانى محبوبى [لإبراهيم الدسوقى]
١٣١ فطرة النفس [لأبى العباس المرسى]
١٣٧ ظهرت لكل الكون [لابن عطاء الله السكندرى]
١٤٣ سُكّر المحبة [لابن أرقم النميرى الأندلسى]
١٤٧ الملجأ الأحمى [لابن الجيّاب الأندلسى]
١٥٣ سلمى [لليافعى]
١٩٥	

المنبهجة [لمصطفى البكرى]	١٥٩
مالى سواك [لأحمد الحلوانى]	١٦٧
تعشقت نور الله [للشيخ على عقل]	١٧٣
موسيقى من الله [للشاعر محمود حسن إسماعيل]	١٨١
على باب الرجاء [شعر : طاهر أبو فاشا]	١٨٧

رقم الإيداع: ٢٣٩٨ / ١٩٩١
الترقيم الدولى: ٦ - ٠٠٥١ - ٠٩ - ١٧٧



General Organization of the Alexandria Library (G.O.A.L.)
المنظمة العامة لمكتبة الإسكندرية

مطابع الشروق

القامية: ١٦ شارع جواد حسن - هاتف: ٣٩٣٤٨١٤ - ٣٩٣٤٥٧٨
بيروت: ص ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

والخشية والتوبة ، وتعمر القلوب
بوشائج المحبة الدائمة ، ومقامات
العشق وأحواله ، وينسكب هذا كله
في النهاية شعراً يفيض بالصدق
ويعمر باليقين والمحبة والإيمان .

والأمل معقود أن تلقى هذه
المختارات من شعر الحب الإلهي ما
لقيته سابقتها لدى القراء من ذبوع
وانتشار ، وأن يستجيب شعراؤنا
ودارسونا للدعوة التي حملتها
المختارات السابقة : أن يسهموا
ويشاركوا في هذا الميدان ، كل على
حسب طاقته واستطاعته
واهتماماته ، فتعدد مجالات الاختيار ،
من خلال أذواق عدة ، من شأنه أن
يؤدي في النهاية إلى تكون الذوق
الصحيح المدرب الذي يجيد الانتقاء
والرؤية النافذة ، وينجح في تقديم
قراءة عصرية جديدة لكل ما يحمله
التراث من كنوز ، بعد أن ينفذ عنها
غبار الإهمال والنسيان ، ويعيد إليها
ماء الجدة والحياة .

فإذا ما نجحت هذه المختارات في
تقريب المسافة بين القارئ المعاصر
وتراث أمته الشعري - قديمه
وحديثه - وفتحت باباً ولويسيراً
لتذوق عصري ، ترفده حساسية
جديدة ، وعوى جديد ، فإنها تكون قد
شارفت الغاية ، وأشارت إلى الطريق .



سلسلة الحب الإلهي

إذا كانت الحلقة الأولى في هذه
السلسلة قد توقفت عند تجربة الحب
في الشعر العربي ، وحملت عنوان
«أحلى عشرين قصيدة حب» في هذا
الشعر، فإن هذه الحلقة الثانية تتقدم
إلى ساحة أسمى من ساحات هذا
الحب هي ساحة الحب الإلهي ، حيث
فاضت وجدانات العشاق الكبار من
الشعراء بأنغام وترانيم وألحان
تطهروا بها ، وحلقوا من خلالها ،
دُنُوا واستشرفاً من الأفق الأعلى
والأسمى ، حيث يتابع الروحانية،
والفيض الغامر ، وحيث تمتلئ
النفوس بأقباس من النورانية
وتفيض العيون بدموع الندم

© دار الشروق